بعد عشرين سنة

أديب اللجمي

بعد عشرين سنة من الوجود الاسرائيلي فوق الارض العربية ، مازالت المشكلة التي نشأت من هذا الوجود قائمة ، لم تنته الى أيّ حل ، بل ازدادت تعقداً ، وازدادت تحدياً للمضطهدين ، أصحاب الحق السليب : الوجود الصهيوني في شكل دولة مستمر ، والرفض العربي لهذا الوجود مستمر أيضاً .

وفي مدى عشرين عاماً ، تجلى من تحدي الصهيونية للعرب مافاق تقديرات اكثر المتشائمين ، كما تجلى من مفارقات الواقع العربي وتناقضاته مافاق أيضاً تقديرات اكثر المتشائمين .

فقد كنا ، نحن الذين عاصرنا نكبة ١٩٤٨ ، واجترعناها كالسم الزعاف قطرة اثر قطرة ، مشحونة بكل ألوان المرارة والذل والهوان ، نعتقد جازمين انه لن يمضي على تشريد ابناء يافا وصفد وحيفا اكثر من سنوات خمس حتى يعودوا الى بيوتهم ، وتعود اليهم حقولهم ومتاجرهم ، ونلفظ السمّ الذي اجترعناه .

ومرت السنوات الخمس ، وفي إثرها خمس اخرى ، في إثرها خمس ثالثة ، ورابعة . وفي اثناء ذلك حدثت ظاهرتان كبيرتان مازالتا حتى الآن موضوع تأمل كل ذي ضمير عربي : — الاولى ان اسرائيل التي لم تكن تتصور ان تتمكن من العيش بشيء من الطمأنينة وهي مطوقة بالشعب العربي من جميع جوانبها ، بقيت طوال عشرين سنة تستمر هي في تهديدها للشعب العربي المجاور لها ، كما استمرت طوال عشرين سنة تحتل أراضي عربية جديـــدة وتتوسع على حساب الازاحة العربية ، وتهدد دون ان تُهدَّد . ولم يكن الخامس من حزيران ١٩٦٧ آخر تهديداتها .

والثانية ان الشعب العربي المنتشر فوق ارض عربية تمتد من « الخليج الى المحيط » والذي يملك ثروات وطاقات بشرية ومادية واقتصادية مذهلة ، مازال طوال العشرين سنة ، ايابا ، يرى بعينيه ثرواته ينهبها الاستعمار وتمتصها الامبريالية وتقدمها ، في صيغ جديدة ، مساعدات ومعونات للعسكرية العدوانية التوسعية الاسرائيلية ، كما يرى ابناءه ممزقين في اقطار عربية ، بينها من ألوان التباعد والفرقة المفتعلة مايجعل حتى المتفائلين يتساءلون احيانا هل الوحدة العربية مجرد وهم ؟ وهل التحرر أسطورة ، وهل كتب على امتنا العربية ان تختنق تحت وطأة الامبريالية والغزو الصهيوني والحكم العربي الممعن في اقطاعيته ورجعيته واتكاليته . وفي اثناء ذلك مازلنا نتحدث عن « معركة تحرير الأرض المغتصبة » وكأننا نتحدث عن رؤى من وراء حجب العالم الآخر ، دون ان **نتساءل جدياً وبصدق وعمق ماذا تتطلب معركة التحرير ، وماذا ينبغي لنا ان نوفر لها من اسباب النجاح .**

ولو أن في قضيتنا نحن العرب خياراً ، او مجرد احتمال للخيار ، لقلنا

ان ثمة مجالا للاجتهاد والتفقه والتحذلق . ولكن الاحتمالات ، جميع الاحتمالات، خلا اثنتين ، مسدودة في وجهنا . أما الاحتمالان الوحيدان امامنا فهما : سبيل تحرير الارض ، كل الارض التي اغتصبتها اسرائيل منذ ١٩٤٨ ، او سبيـــل الفناء التام . والتشريد في الصحراء او في المخيمات هو لون من الوان الفناء .

واذا كان تحرير الارض المغتصبة ، واستعادة البيت السليب،هومانتشد، فكيف يتم لنا ذلك ؟ أنكتفي بنظم الاماني ، ونثرها فوق واقعنا ؟ ام نتساءل عن السبل المجدية الصحيحة لبلوغ اهدافنا ؟ واذا عرفنا بعد تحليل نقدي جدي هذه السبل ، فماذا نفعل لنسلكها ؟ وهل نستطيع سلوكها ؟ من الطبيعي انه لايكفي ان نستهدف وحسب . علينا ان نعرف السبل الى بلوغ الاهداف . والشعب القادر على التحرك في اتجاه صنع مصيره ، لايفصل بين الغايات والوسائل.

على ان ثمة من يرى بأن المشكلة التي نواجهها ، نحن العرب ، منذ عشرين سنة حتى اليوم ، قد بدأت ، بعد عدوان الخامس من حزيران ، تأخذ شكلاً جديداً ، هو البداية الفعلية الى « عملية التحرير » . والواقع ان مانرمي اليـــه بالضبط هو هذا . فاذا كان هناك من يتصور او يتوهم بأن خسارة معركة او معارك ، وضياع ارض جديدة يجب ان يقنع العرب بعقم كفاحهم ،ويزيف حقوقهم في أوطانهم ، ويجب ان يهيب بهم الى ان يتفاهموا مع اسرائيل، وان يتعايشوا مع اسرائيل الدولة ، فمثل هذا التصور لايمكن ان يدغدغ رؤوس ابناء الشعب ، بل قد يراود اذهان بعض الحكام الذين مازالوا يؤمنون بالغرب إلهاً ، وما زالوا يعتقدون بأن مهمتهم أصلاً هي الابقاء على مصالح الغرب .

ان امثال هؤلاء ليسوا من حيث النتيجة هم الذين سيحسمون المشكلة . فكارثة فلسطين اصابت الشعب قبل ان تصيب الافراد ، وهددت وجود الامة كأمة ، قبل ان تهدد هذا المواطن او ذاك . وطبيعي جداً ان يكون القيّم على حلها هو الشعب العربي نفسه ، لأنه هو صاحب الحق في حلّها .

ماهو هذا الحل ؟ كيف يدرك شعبنا أبعاد المشكلة ، او كيف يعيشها بالأحرى ؟

ليس مستحباً ان نعاود الكرة في تفصيلات شائعة ولكن استعراضاً سريعاً للمعطيات الاساسية في الموقف الاسرائيلي ، وفي الموقف العربي ، لابدّ وان يساعد على استجلاء الحلّ الذي نقدّر ان يكون هو المجدي .

ان المعطيات الأساسية في وضع اسرائيل تتجلى امامنا خلال العشرين سنة التي مرت ، بما يلي : آل العمل الصهيوني المنظم ، الذي بدأ في مطلع القرن العشرين ، الى حمل دول الغرب على تذليل جميع العقبات التي تقف في وجه قيام دولة صهيونية في فلسطين . والتقى الهدفان : الهدف الاسرائيلي الرامي الى اقامة الدولة اليهودية ، والهدف الامبريالي الرامي الى استمرار اضعاف العرب وتمزيقهم واستنزاف بترولهم وثرواتهم وإبقائهم في منطقة النفوذ الغربي ، التقى الهدفان على وجوب انشاء اسرائيل الدولة ، لا في أفريقيا ، ولا في امريكا اللاتينية ، بل في فلسطين بالذات . وقد شارك في هذا الانشاء جميع يهود العالم ، كل حسب طاقته .

يقول دوبنانسكي : « ان دولة قد أنشئت من يهود العالم أجمع . ان الحركة الصهيونية بوصفها جزءاً من الشعب اليهودي كانت دوماً هي

والشعب اليهودي شيء واحد . ومنذ ١٩٤٥ اصبحت الحركة الصهيونيـــة هي الناطقة بلسان الشعب اليهودي كله . اذن فقيام دولة اسرائيل هو من عمل مجوع اليهود . وما من مرة اهتم فيهـــا اليهود بالسياسة إلا وكان تفكيرهم وعملهم مركزين على فكرة الدولة . ان الدولة الحديثة هي مفتاح مشكلات اليهودي الحديث . فقد وجد مكانه في المجتمع بفضل الدولة الحديثة . لهذا اعتبر اليهود انهم لا يستطيعون أن يتبوأوا مكانهم في المجموعة العالمية الا عن طريق انتمائهم الى دولتهم . فدولة اسرائيل هي اذن الدولة النظرية لجميع اليهود[1] ».

وبذلك برهن اليهود ، وهم جنسيات متعددة ، وقوميات متنوعة ، على أن ولاءهم للصهيونية يفوق بكثير ولاءهم لأوطانهم الأصلية . وكان آخر مظاهر هذا الولاء بشكله الفاضح رد الفعل اليهودي في أعقاب التصريح الذي أدلى به في تشرين الثاني من العام الماضي الجنرال ديغول حين قال : « ان اليهـــود شعب من الصفوة ، معتدون بأنفسهم ، ومتسلطون » . قام في وجهه محتجين ، بل متحدين ، جميع يهود فرنسا . حتى ان اكثرهم ليبرالية ، واكثرهم ولاء لديغول لم يترددوا في أن يعلنوا تبرؤهم من حكمه ، وأن يسلطوا عليه حملة مركزة مع حملة أجهزة المخابرات الأمريكية ، خلاصتها أن ديغول أخذ يمارس سياسة مناهضة السامية . في ذلك الموقف تحدى يهود فرنسا جميع المواطنين الفرنسيين ، حين اعلنوا أمامهم أن مشاعرهم مرتبطة باسرائيل اكثر مما هي مرتبطة بفرنسا .

وفي الندوة التي نظمتها مجلة « الفكر Esprit » الفرنسية لعدد من كبار

---

(١) مجلة « الفكر Esprit » الفرنسية – عدد نيسان ١٩٦٨ – ص ٥٨٨ .

المفكرين اليهود الفرنسيين[1] ، طرحت المجلة عليهم الموضوع بالصيغة الملخصة التالية : « حين اندلعت الحرب بين العرب واسرائيل في حزيران الماضي ، هب فريق كبير من يهود فرنسا وأخذوا موقفاً مؤيداً لاسرائيل . وأعلن أكثر ممثلي الجماعة اليهودية الفرنسية عن دعمهم بلا تحفظ لاسرائيل . وفي كثير من الحالات اكتشف اليهود لأنفسهم جذوراً كانوا يجهلونها . وجاءت سياسة الحكومة الفرنسية ، ثم تصريحات الجنرال ديغول ، **لتوقظ عند كثيرين من اليهود الشعور بأن إقامتهم في فرنسا قلقة** ، وأن وضعهم فيها كمواطنين محفوف بشيء من الغرابة . ان هذه حالة نفسية يصعب تحليلها ، بل ربما كانت متناقضة : فاليهود يطالبون بالتمايز ، ويستهجنون أن يكتشف الآخرون هذه المطالبة . وهم يعلنون عن تضامنهم دون قيد لاسرائيل التي يعتبرونها نظرياً دولة **جميع اليهود** ، وفي الوقت ذاته يستنكرون التصريحات القائلة ان ثمة « شعباً يهودياً » يتميز بخصائص معينة .

إزاء هذا الواقع نتساءل : كيف يكون الانسان يهودياً في فرنسا ؟ مانوع ارتباط اليهود الفرنسيين باسرائيل ؟ »

وقد أجاب أليكس ديرشانسكي Alex Dercaznsky بما يلي :

« ان حوادث أيار وحزيران ١٩٦٧ قد اكدت لي تحليل مفكري الصهيونية ، **من ان ثمة شعباً يهودياً** ، وأنه يمكن ان يأخذ اشكالا متعددة ،

---

(١) راجع مجلة الفكر الفرنسية عدد نيسان (أبريل) ١٩٦٨ ، وفيه النص الكامل للندوة التي عقدها مدير المجلة لطائفة من المفكرين اليهود في فرنسا ، حول مشكلة امكانية ازدواج الانتماء .

Revue Esprit - Avril 1968 - Les Juifs de France ont - ils changé ? p.p. 581 - 622 .

وأنه يمكن ان تحدث في ظروف معينة ردود فعل قومية . ان الشعور الذي تملكني حين كنت في شهر حزيران الماضي في الاجتماع التمهيدي للجنة تنسيق الأعمال اليهودية في فرنسا ، هو شعور الاتحاد المقدس ، الشعور الذي تملك شارل بيجي سنة ١٩١٤ حين ذهب الى الحرب ، **الشعور بوحدة الشعب اليهودي** . وسيان أن يكون هناك افراد عبّروا عن مواقفهم باتجاهات مختلفة وأفنية متنوعة ، واضطروا الى ان يتخذوا آنذاك موقفاً للدفاع عن دولة اسرائيل . **المهم ان شعوري كان عامراً بحقيقة الصهيونية السياسية** . »

ولكن هذه الدولة التي قامت على اكتاف يهود العالم كلهم ، لم تكن تطمئن يوماً واحداً الى أن بقاءها فوق فلسطين يمكن ان يصبح مقبولاً من العرب . فالسلام بالنسبة اليهـا مستحيل التحقق ؛ وبغض النظر عما اذا كانت اسرائيل ترغب أو لا ترغب فعلاً في حياة سلام وأمن مع العرب ، فان واقع وجودها اليومي قد برهن على انها كانت وما تزال تعتبر وجودها محفوفاً بجميع انواع الأخطار . وربما كان استمرار عدوانها على البلاد العربية المجاورة طوال عشرين سنة مضت هو نتيجة مباشرة لهذا الخوف الدائم من الشعب العربي . تلك هي الخاصة الثانية في وجود اسرائيل ؛ ونتيجة لها كان لابد لهذه من ان تزداد ارتماء في احضان الامبريالية الامريكية وان تزيد من حلفها معها ؛ فأصبحت اسرائيل بمرور الزمن الممثل العسكري الامبريالية في الوطن العربي . وبحكم هذه الخاصة الجديدة ، اخذت تتدفق المساعدات على مليونين ونصف المليون من الصهيونيين ، مساعدات مالية وعسكرية وتقنية وفكرية واعلامية ، تتجـاوز حدود المعقول وغير المعقول . وما كان لهذه المساعدات ان تتدفق بمثل هـذه الكميات المذهلة لو لم تكن ثمة حقيقة كبيرة هي ان المقاطعة العربية لاسرائيل ،

وطوق الحصار الذي فرضه العرب عليها كانا من الشدة بحيث أنه غدا مستحيلاً على اسرائيل ان تبقى على قيد الحياة اذا لم يصل اليها نسغ الحياة من واشنطن وبون ولندن وامستردام وغيرها من عواصم الغرب الامبريالي بصورة دائمة . وحتى هذه المساعدات لم تنجها من مشكلات البطالة وازمات العمل والغذاء . فقد بلغ عدد العاطلين عن العمل قبيل عدوان الخامس من حزيران اكثر من مائة الف شخص، وهو رقم كان كافياً ليشيع القلق لا في اسرائيل وحدها ، بل في جميع اوساط المنظمات الصهيونية العالمية ؛ وقد استتبع فعلاً شروع بعض اليهود الاسرائيليين في مغادرة فلسطين المحتلة والعودة الى البلاد التي جاءوا منها .

أما الخاصة الاخيرة في الوجود الاسرائيلي فهي النزعة العسكرية العدوانية . انها في تقديرنا نتيجة لاعتقاد اسرائيل بأن العرب لايمكن أن يقبلوا بها ، لا اليوم ولا غداً . وحتى لو تأكدت اسرائيل من أن حكاماً عرباً يجرأون بخيانة أن يبرموا معها صلحاً أو تعايشاً سلمياً ، وحدث مثل ذلك فعلاً ، لما استتبعت هذه العملية أية طمأنينة لاسرائيل . فالحكام ليسوا هم سادة المصير العربي ، بل الشعب العربي الذي لايمكن أن يقبل بالوجود الاسرائيلي فوق ارضه . من هنا ترتب على اسرائيل أن تستمر في إذكاء النزعة العسكرية العدوانية لدى ابنائها ، ولدى جميع الجاليات اليهودية العالمية التي تدعمها . تلك هي المعطيات الاساسية في الوجود الصهيوني .

* * *

ان الخطوط الكبرى في معطيات الواقع العربي تتجلى بمايلي : الشعب العربي هو الذي سلبت أرضه ، واغتصب بيته . فهو بالأمس واليوم وغداً ، وحتى يوم القيامة صاحب الحق الشرعي والفعلي في فلسطين ، بلد آبائه وأجداده .

وقد تواطأ على حقه جميع قوى العالم ، وقد يتآمر عليه حكامه ، بعضهم أو كلهم ؛ رغم ذلك يظل حق هذا الشعب في استرداد أرضه قائماً ، ينتقل من جيل الى جيل حتى تعود الأمور الى نصابها .

ونتيجة لذلك ، يرفض الشعب العربي مجرد التفكير بالاعتراف بالوجود الصهيوني فوق فلسطين . ان عشرين سنة قاتمة من الحياة البائسة في المخيمات لم تجعل فلسطينياً واحداً يقبل بالاستسلام ، بل بالعكس أحالت جميع أبناء فلسطين ، في داخل الارض المحتلة وخارجها ، الى قوى فدائية جعلت العالم كله على أن يتحدث عنها باعجاب وتقدير .

والشعب العربي الذي يرى الوجود الاسرائيلي فوق أرضه قد أدرك بعفوية طيبة ونبيلة أن التحرر من اسرائيل يعني في الوقت ذاته تحرراً بمن هم سند لاسرائيل : قوى الامبريالية . وفي سبيل ذلك قتّر على نفسه ، وسكت عن كثير من صفاقات حكامه ، وتحمل ألواناً من الاضطهاد والاستغلال ، آملاً أن تكون معركة التحرر القريبة هي النهاية لمتاعبه . ولكن الامور لم تسر تماماً في الطريق المرجوة . فمعركة التحرر من اسرائيل ، ومن الامبريالية ، لا تنفصل عن معركة التحرر من كل حكم عربي يتنكر لابسط مفاهيم التقدم والحرية والعدالة الاجتماعية .

واليوم اذ ينظر المواطن العربي الى خارطة وطنه ، يرى أن هذا الشعب الكبير بآماله وطاقاته وسكانه ، ما زال ممزقاً ، تنهش فيه أحقاد الاقليمية الصغيرة ، وعقلية القرون الوسطى بكل ضيقها وظلامها وتحجر عاطفتها ، كما يرى رزقه وخيراته يأكلها الغرب الاستعماري تحت بصره وسمعه . والطفل الصغير أصبح يعلم أن معركة التحرر لا تعني مجرد اعداد الجيوش وتنظيمها وتدريبها وتزويدها بأحدث السلاح وحسب ، بل تعني ثورة حقيقية تتصدى لجميع قضايا الامة وبنيانها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي ، فتعيد بناءها من جديد

لتساعد على تكوين المواطن العربي الجديد ؛ فالتحرر من الوجود الاسرائيلي هو في الوقت ذاته تحرر من التخلف، ومن جميع أنواع العقليات الاقطاعية والمتسلطة.

وإزاء هذا النزوع اليومي الذي يتجلى في جهاد الجماهير العربية، يرى المواطن العربي أن الجهود التي تبذل بصدق لتعبئة الطـاقة العربية وتوحيدها ما تزال مقصرة جداً عن الحد الادنى المطلوب . بل ان دروس عدوان الخامس من حزيران الماضي لم تستخلص حتى الآن . القوى التقدمية في الوطن ما زالت متفرقـة ، تتحدث كل منها عن واجبات اللقاء ، وضرورات التوحيد . ابراء للذمة ؟ ربما ! عن قناعة وتصميم ؟ ربما أيضاً. المهم أن اللقاء مازال أمنية. والبترول العربي ما زال يتدفق في مصانع الغرب التي تقدم لاسرائيل الطائرات والمدافع ووسائل ابادة العرب. والبترول العربي ما زال يحرك مصانع الغرب ليرفع من مستوى حياة شعوب الغرب ويزيد من رخائهـا ويزيد في الوقت ذاته من بؤس شعبنا، وليتحول قسم ضحل منه الى اوراق نقدية يشتري بها المتحكمون من العرب في بترول العرب ، السيارات والنساء وعناصر الترف . أما أن يتوقف هـذا البترول عن أن يصل الى أيدي الغرب الامبريالي ، فذلك عين الكفر ؛ وأما أن تتحول هذه الثروة الهائلة الى قوة تساعد على التحرر العربي ، فذلك ضرب من الزندقة . وحتى حين يتحول جزء يسير من عائدات هذا البترول **المستخرج من باطن أرض الشعب العربي**، الى مساعدات للبلاد العربية التي واجهت عدوان الخامس من حزيران ، فيجب أن يكون كل دولار مدفوع مشحوناً بأثقال المنة والتفضل.

في منطق كهذا لن يكون مطلوباً من الشعب العربي أن يتحرر من اسرائيل قبل أن يتحرر نهائياً والى الابد من جميع اولئك الذين يقفون عثرة في طريق تقدمه وحريته ووحدته. أن الشعب العربي ،بعد عشرين سنة من نكبات متوالية توقعها عليه اسرائيل ، قد وضع قدميه على بداية الطريق الصحيحة الى التحرر . وبداية الطريق

للتحرر من اسرائيل هي العمل الفدائي ، تتلوه الحرب الشاملة . أما بداية الطريق للتحرر الداخلي فلن تكون إلا بقيام نواة للوحدة العربية التقدمية الاشتراكية .

ان انتصار الحق العربي على الوجود الاسرائيلي كله أمر حتمي لايقبل مجرد المناقشة . أما متى يتم هذا الانتصار، ففي تقديرنا أن الوقت مرهون بالتصميم العربي على حشد جميع الطاقات الفكرية والعسكرية والاقتصادية في طريق التحرر الكبير . وكل تبرير لنكسة الخامس من حزيران أو لنقصان الاستعداد العربي ، أو لسوء تقدير الوضع من قبل المسؤولين العرب ، هو تبرير جدير بالاطفال لا بالرجال . ليس من الشجاعة في شيء أن نتأسى على الماضي، بل الشجاعة كل الشجاعة أن نحلل بصدق ونزاهة وبروح يعمرها الايمان بالمستقبل أسباب انتكاساتنا المتعاقبة، لنخلص منها الى حلول جديدة تنتفي منها كل نكسة، وتستمر فيها معركة التحرر العربي متقدمة أبداً ، مظفرة على الدوام .

ومن البديهي أن معركة التحرر تعني معاً وبآن واحد تحرراً في الداخل من كل تجزئة وتخلف ورجعية ، وفي الخارج تحرراً كلياً من الامبريالية واسرائيل . إن عدونا كبير وقوي ، وانتصارنا عليه لا يكون في معركة واحدة ، ولا في مدى قصير ؛ ولا يعني ذلك أن نضيع يوماً واحداً سدى ، كما لا يعني ذلك أن قوة الخصم يجب أن تثبط ارادتنا في التحرر . ان النصر العربي المقبل حقيقة **لايجوز أن يشك فيها انسان عربي واحد** . والنصر معقود حتماً لكل من يحسن تنظيم قواه ومؤسساته وخططه . هذا ما يطلب منا الآن عمله ، وهو في مقدورنا ، وفي نطاق إمكاناتنا . **ان العالم لن يكون خصماً لنا حين نتمكن نحن من استرداد حقنا بسواعدنا** . لقد اصبح العمل الفدائي العربي حديث الناس في جميع بلاد العالم، حتى اولئك الذين يعطفون عوغائياً على الصهيونية

لا يستطيعون إلا أن يخفضوا رؤوسهم اعجاباً بالكفاح العربي في وجه الجديد. بل ان اعمال المقاومة العربية قد جعلت كثيرين من ابناء الغرب يعيدون النظر في تأييدهم لاسرائيل.

في ندوة عقدها مؤخراً بعض الصحافيين اليساريين الفرنسيين، قال أحدهم: « اذا كان اليساريون في العالم يريدون أن يدعموا حلولاً ديمقراطية عادلة وطويلة الأجل في الشرق الأوسط، لاحلولاً وسطى وجراحة تتعرض للانهيار من حين لآخر، فينبغي عليهم قبل كل شيء أن يساعدوا بلا تردد المناضلين الفلسطينيين الذين يحاربون الآن في هذه المنطقة من العالم، وفي الخطوط الأمامية من معركة التحرر من الأمبريالية. وينبغي عليهم أيضاً أن يدعموا الأنظمة العربية التي اختارت الابتعاد عن الامبريالية، كما ينبغي عليهم أن يقدموا جهودهم لتعميق وترسيخ هذه الأنظمة التقدمية. ينبغي أن يساعدوها على أن توطد سلطتها التي تهددها الامبريالية من الخارج والثورة المضادة من الداخل (١) ».

وفي مكان آخر من المناقشة يقول الصحفي ذاته:

« ينبغي الا يفوتنا أن النزاع في الشرق الاوسط، رغم ظهوره في صورة نزاع اسرائيلي - عربي، هو نزاع بالدرجة الأولى بين الأمبريالية التي تتمتع بقوة تقليدية كبيرة في هذه المنطقة من العالم، وبين القوى الثورية العربية التي أخذت بالرغم من حداثتها تهدد مراكز النفوذ المكتسبة.

(١) من حديث للصحفي الفرنسي ألبربول لانتن Albert P. Lentin في مجلة الديمقراطية الجديدة الفرنسية Démocratie Nouvelle - Mars 1968 « Le Monde arabe s'interroge »

« ان الأمبريالية التي تقود العملية في الشرق الاوسط ، هي بلا شك الامبريالية الأمريكية التي يمكن تشبيه مسيرتها الى الأمام ، بمسيرة عربة يجرها حصانان : الحصان الاسرائيلي ، وحصان الاقطاعية العربية . لقد أطلق جونسون أثناء حرب حزيران الماضي العنان للحصان الاسرائيلي . واذا كان يريد الآن الإبقاء على توازن العربة ، فان عليه أن يوقف جماح الحصان الشرس لئلا يتجاوز كثيراً الحصان الآخر . انني أرى بأن الولايات المتحدة التي تود المحافظة ، مهما كلف الأمر ، على سيطرتها على البترول العربي ، والتي تحرص في الوقت ذاته على ألا تزيد من تصادمها مع الاتحاد السوفيتي في هذه المنطقة من العالم ، في الوقت الذي زجت فيه قوتها العسكرية الهائلة في الشرق الأقصى (فيتنام) ، ستحاول ان تجعل المسؤولين الاسرائيليين يقبلون ببعض التنازلات للعالم العربي المشايع لهم ، عالم الأمراء والشيوخ المرتشين ، عالم التقنوقراطيين البورجوازيين ، والملوك الخانعين ...

« يجب أن نعترف مع ذلك بأن الاسرائيليين مافتئوا منذ ١٩٤٨ يستولون على الأراضي العربية في نطاق نزعة توسعية تقلق العرب جميعهم . فالدولة الاسرائيلية التي قامت سنة ١٩٤٨ في أعقاب الهجوم الاسرائيلي على الجيوش العربية ، قد حصلت لنفسها على أراض أكبر من الأرض التي منحتها اياها هيئة الأمم المتحدة . وفي ١٩٦٧ استولت اسرائيل على أراض جديدة واسعة ، فاذا طلب اليها أن تنسحب منها ، اعلنت عن تمسكها بها حتى يأتي العرب الى مائدة المفاوضات المباشرة معها ...

« من الخطأ إذن أن نعتبر الصهيونية قضية عابرة . انها واقع يطرح على الفلسطينيين ، وعلى جميع الشعوب العربية ، وجميع الحكومات العربية ، مشكلة دائمة ، اذ أن وجود الصهيونية ذاتها في داخل اسرائيل ، وخارج اسرائيل يشكل تهديداً بالتوسع المستمر لاسرائيل .

«وما دام المذهب الصهيوني يطالب بان يكون لكل يهودي الحق ، حيثما كان ، ومهما تكن درجة اندماجه في البلد الذي يعيش داخله، في المجيء الى اسرائيل بل واجب المجيء الى اسرائيل والاقامة فيها ، بوصفها « أرض الميعاد » فان دولة اسرائيل تظلّ مشدودة أبداً الى فكرة الحاق أراض عربية جديدة بها، لتتمكن من توطين الجدد من القادمين اليهود . ان هذه النزعة قد أخذت تبرز مؤخراً في اسرائيل ، اذ راح بعض الزعماء يتحدثون عن « اسرائيل الكبرى » التي تتسع لخمسة ملايين يهودي .

«وهناك سبب ثان يجعل العرب يعتبرون الصهيونية ظاهرة سلبية دائمة ، هو كون هذا النظام السياسي يعبر عن علاقة حية وشرسة بين اسرائيل والعالم الرأسمالي المتطور الذي يتجمع الآن فيه أكثر يهود العالم ، وبصورة خاصة بين اسرائيل والجالية اليهودية القوية في الولايات المتحدة ، هذه الجالية التي تدعم اسرائيل دعماً مالياً وسياسياً بالغاً . واذا كان قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ قد صدم العرب ، فرد ذلك ان اسرائيل تجسد التسلط الرأسمالي الامبريالي المستغل لعالم عربي مغلوب على أمره ... ان حرب الأيام الستة قد زادت من تبعية اسرائيل لحماتها الغربيين ، وبخاصة لحاميها الأمريكي القوي » .

* * *

معطيات الواقع الإسرائيلي لم تعد خافية على أحد ، على افتراض أنها كانت غير واضحة تماماً بالنسبة للرأي العام المحلي والعالمي . أما معطيات الواقع العربي ، فلا يكفي أن نحيط علماً بها ، مرة أخرى ، وبعد عشرين سنة ،لا سبيل أمامنا إلا سبيل التحرير الشامل . ومن يعرف الغاية يعرف الوسيلة . فلتكن سنة ١٩٦٨ سنة انطلاق الوسائل الناجعة لبلوغ الغاية المستهدفة .

في استراتيجية المقاومة (١)

محمود الخالدي

ليس الهدف من هذا البحث ، الخروج بدليل عمل نضالي مفصل ، يكشف « الطالع » لمجرى أحداث الثورة الفلسطينية المسلحة ، فهذا كثير بالنسبة لرجل واحد ، فضلاً عن أنه قد يحمل في مثل هذه الحالة معلومات يفيد منها العدو ، وتفتح له ثغرات في نضالنا قد تكون قتالة . وفي ثورة كالثورة الفلسطينية المسلحة يبدو أنه لابد من مزيد من المعاناة ، والتجربة والخطأ حتى تتضح الصورة الصحيحة الكاملة ، وملامح المنهج العلمي للثورة ، من خلال تزاوج النظرية والتطبيق .

إن هذا الموضوع في حد ذاته يحمل دعوة الى الآخرين الذين يعرفون هذه الأمور جيداً أن يتحلوا بشجاعة المقاتل ويدخلوا المعركة .

---

(١) هذا البحث هو خطوط كبرى للموضوع الواسع : «استراتيجية المقاومة العربية في فلسطين » ، كما سيعالجه صاحب المقال الأستاذ محمود الخالدي (عضو منظمة التحرير الفلسطينية) في كتاب يصدر قريباً ويحمل العنوان ذاته .

كثيرون أولئك الذين ينظرون الى مايجري اليوم داخل الارض المغتصبة، على انه شكل من اشكال المقاومة ورد الفعل ضد احتلال حزيران ، مايلبث ان ينتهي اويجب ان ينتهي ، بانتهاء اثار العدوان .

وما انا بسبيل مناقشة هذا المنطق ، مادامت الملحمة تتابع فصولها يوما بعد يوم ، ولا تكترث بالتلفت وهي تسير . على انني من وجه آخر لايسعني الا ان اوضح أساس البحث الذي يقوم على اعتبار هذا الشكل النضالي - المفعم بكبرياء شعبنا وارادته وعناده - جزءاً من استراتيجيـــة كاملة لحرب تحرير فلسطينية ، بدأت تشق طريقها قبل الخامس من حزيران ، وظلت طوال عشرين عاما من عمر نكبتنا الاسود ، حلم عيد في قلوبنا ، نتلمس طلته على الدروب السود ، نحن الشعب المشرد، الذين انطوينا على رغبة الصراع العادل ، حقيقة وجود ، ومواكب بطولة ، وارث اجيال نصف قرن من الزمان .

ومن ورائنا ، يقف آخرون ، لم يستطيعوا ان يتخلصوا من شكوكهم في جدوى هذه الحرب الفدائية والنتائج التي يمكن ان تقود اليها ، ويتساءلون - ولا يبدو عجيبا هذا التساؤل - كيف يمكن لفئة من الرجال المؤمنين ، ان تحطم آلة العدو العسكرية المتفوقة ، وتلغي وجود اسرائيل التي تدعمها الامبريالية وكل قوى الاستعمار في العالم ؟ لن اهتم بالرد السريع على هذا التساؤل، بل الذي يهمني ان تستطيع هذه الاسطر القليلة ، ان تحمل الرد على هذه المسألة وغيرها من المسائل المعقدة التي تنطوي عليها حرب التحرير الفلسطينية .

ولنناقش الموضوع بالتدرج بدءاً من المسألة التالية :

هل يمكن للتحريك العسكري المجرد - وأشدد على كلمة المجرد - ان يكون مفيدا بالضرورة وتلقائياً في قضية فلسطين ؟

في تقديري ، ان هناك ثلاثة أطراف ستحاول جاهدة توجيه مردود هذا التحريك صوب اهدافها . هذه الاطراف هي :

١ — حركة التحرير .

٢ — حركة الانحيار بالقضية الفلسطينية ، فكلما تحركت القضية النائمة شرعت ابواب المساومة على مصراعيها وازداد سعر السلعة .

٣ — العدو الذي سوف ينشط جاهدا في كل المجالات فيستخدم التحريك — وقد يضخمه — استدرارا للعطف ومبررا للتسلح الواسع وذريعة تكتيكية يخفي وراءها براعة اندفاعاته العدوانية المسلحة في الارض العربية ، فيعتدي ، ويصور نفسه معتدى عليه ، ويغتصب الارض ، ويصور نفسه محروماً من حق الحياة الآمنة والحدود الآمنة .

يهمنا اذن ان نبحث عن العامل الذي يعطي التحريك العسكري اتجاهاً تحريريا محضا ؛ هذا العامل هو بناء استراتيجية وتكتيك ، على ضوء المعطيات الراهنة والاوضاع القائمة والظروف الحية والموضوعية التي تتصف بها القضية الفلسطينيـــة ، فنعرف اولاً ماذا نريد ، ونعرف ثانيا ما الذي يريده العدو .

واعترف أنني لطالما ساءلت نفسي وطارحتها في امعان ، ما الذي نريده من العمل الفدائي ؟

— هل نريد ان نوقظ الضمير العربي ، تماما كما يفعل راهب بوذي يقدم على الانتحار علناً امام الملأ ليهز الضمير النائم في وجدان الجماهير ؟

— ام نريد أن نخوض حربا ، لاهدف لها سوى ازعاج العدو ؟

— أم نريد تسخين الحدود ، بغية توريط العدو ، او العرب — لافرق

حينئذ – في حرب تحسم القضية لنا او علينا ؟

– ام اننا نبتغي خوض غمار حرب تحريرية بالتنسيق مع الجيوش العربية النظامية ، اوحرب تحريرية بمعزل عن هذه الجيوش على غرار الثورة الجزائرية ؟

أقول ، لابد من الشجاعة لتحديد الاهداف بشكل واضح ومدروس . ان نعرف ماتريد يساوي تماما القدرة على وضع الاستراتيجية ، اي الارضية السليمة التي يقوم عليها بناء الثورة المتكامل .

ومنعاً للاستطراد ، اجيب : « نعم حرب تحرير فلسطينية ، تجتث الكيان الصهيوني الغاصب » . ولكن كيف ؟ .

يخيل لي اولا اننا يجب ان نحاط معرفة بتلك الاعمدة التي يقف عليها هذا الكيان ، وبالعوامل التي تدخلت في صناعته وتركيبه ولم تزل تتدخل . بعبارة اوضح ان نحيط باستراتيجية العدو وخصائص هذه الاستراتيجية .

ويخيل لي ثانياً اننا يجب ان نحيط بخصائص حروب التحرير . إن اهم خصائص استراتيجية العدو في تقديري هي : الهجرة – القتال – الدعم الاستعماري .

وموضوع (الهجرة – القتال) أشير اليه باقتضاب على النحو التالي :

الهجرة ، هي الخاصة الاولى التي تميز الحركة الصهيونية عن غيرها من الحركات الاخرى في العالم . فلقد استهدفت هذه الحركة انشاء الدولة – الحلم . ولما لم يكن لهذه الحركة شعب يقيم على ارض فلسطين فقد انطوت طبيعياً على تحقيق هدف استراتيجي اساسي هو الهجرة ، واستهدفت منذ نشوئها ولما تزل وسوف تستمر على تهجير جماعي لليهود من كافة ارجاء المعمورة الى فلسطين

(نقطة التجمع) . والآلة الصهيونية كانت تتحرك ولما تزل على كل المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية والتنظيمية والمالية والدبلوماسية لخدمة الهدف الاستراتيجي الكبير الا وهو الهجرة .

وبالرغم من كل التبديلات الجذرية التي تناولت جوهر وظيفة الحركة الصهيونية وسياستها ١٩٤٨ حينما انقلبت من منظمة مركزية عالمية تستهدف تهويد ارض وطرد شعب وخلق دولة ، الى دولة قائمة فعلا ، فان ذلك لم يستتبع تغييراً في المنهج الصهيوني بصدد الهجرة .

فبرنامج القدس الذي وضع بعد ١٥ ايار ١٩٤٨ بديلا لبرنامج بال ، عاد فاقر كسابقه المركز الممتاز للهجرة واعتبرها محور الحركة الصهيونية ، وجوهر وظيفتها واساس بقـــاء اسرائيل واستمرار وجودها . هذا وتشير التحليلات السكانية المعلن عنها في اسرائيل مؤخراً الى ان عدد سكان اسرائيل سوف يبلغ سنة ١٩٧٥ اربعة ملايين نسمة . وهذه التحليلات للتكوين السكاني في اسرائيل لاتقوم على الزيادة الطبيعية بل على اساس الهجرة .

والحقيقة ان موضوع الهجرة او عدمه هو الذي يقرر في النهاية خطأ اوصواب الحجة الصهيونية الاساسية التي استخدمتها لتضليل الرأي العام العالمي ، بأن حل مشكلة اليهود هو في خلق دولة اسرائيل . فاذا اعرض اليهود عن الهجرة فان هذا ينسف الفكرة الصهيونية من اساسها وينفي نفياً صريحا جدوى الوجود الدخيـــل في ارضنا من قبل اليهود انفسهم .

والقتال توأم الهجرة والجزء الجوهري في استراتيجية العدو . كيف ؟ لقد قام الوجود الدخيـــل في أرضنا بالضرورة على الغزو والاغتصاب ، لا على

الشرعية . فالحفاظ عليه ، وضمان استمرار وجوده ، وضمان تحقيق المطامع التوسعية ، لايكون الا بالقتال والتشبث المستمر بالسلاح ؛ لأن البديل عن القتال والسلاح هو الشرعية . والشرعية تنسف كل كيانه أصلا .

واستمرار الهجرة يعني استمرار التطلع القتالي والتوسع العدواني . وهذه الحقيقة بديهية في منطق الحركة الصهيونية ومركبها . ان كل حركة توسع جديدة تجمع في حد ذاتها القدرة على استيعاب جديد، وتجمع القدرة لحركة توسع جديدة. كلما ضاقت بهم الأرض انفجرت بهم الحدود ، وكلما انفجرت بهم الحدود ، اتسعت الأرض لمهاجرين جدد . كانوا أقل من المليون وكانت مساحة الأرض المغتصبة (٢١٠٠٠) كم٢ . واليوم هم ثلاثة ملايين الا قليلا ومساحة الأرض المغتصبة (٨٢٠٠٠) كم٢ أي ثمانية مرات مساحة لبنان ونيف .

إذن ، وما دمنا في سبيل استئصال الكيان الدخيل فان علينا كما يبدو ، أن نحدد أهدافنا الاستراتيجية الاولية كما يلي :

١ — وقف الهجرة اليهودية ثم خلق الظروف الملائمة للدفع نحو الهجرة المضادة من اسرائيل .

٢ — تعطيل آلة العدو العسكرية التي تثبت وجوده وتشكل عامل جذب للهجرة وتحميها .

بقي تحديد الوسيلة . فمن لايضع وسائله بمستوى أهدافه يخسر المعركة .

قطعا ان حرب التحرير الفلسطينية لن تتخذ شكل الحرب النظامية لانعدام التكافؤ بيننا ، وبين آلة القمع الاسرائيلية النظامية . وتدل تجارب حروب التحرير انه عندما يشير ميزان القوى الى انعدام هذا التكافؤ فليس من وسيلة غير الحرب الشعبية . يقول الجنرال جياب: « لقد اثبتت حرب التحرير

الشعبية الفيتنامية من وجهة النظر العسكرية ان جيشاً شعبياً غير مسلح جيداً ، يستطيع باستراتيجية وتكتيك مناسبين ان يجمع الظروف المطلوبة للانتصار على جيش حديث تابع للامبريالية العدوانية » .

بقي اذن ان نلم بخصائص الحروب الشعبية ونملك التصور السليم لمقاييسها. ذلك انه اذا شوه هـذا التصور أو حاق به الغموض والجهل ، فان النتائج تأتي خائبة بعيدة عن بلوغ الهدف المنشود ، مهما تكن التضحيات التي تبذل في سبيله .

وتبسيطاً للبحث ، واذا جاز لنا ان نلجأ في قضية مثـل قضية الحرب الشعبية الى تقسيم مدرسي ، وجدنا أمامنا مدرستين :

الأولى : ونموذجها الحي حرب الأنصار في الاتحاد السوفياتي ابان الهجمة النازية .

الثانية : ومثالها التجربة الكوبية .

في حرب الأنصار السوفياتية سارت الأمور على النحو التالي :

تقهقر الجيش السوفياتي النظامي أمام توغل الجيش النازي . وجه ستالين نداءه الشهير الى الشعب بالبدء بحرب الانصار . تولت مفارز الانصار الشعبية دعم الجيش السوفياتي بالقتال على الخطوط الداخلية ، وضرب مؤخرة العـدو وارهابه وتعطيل خطوط تموينه ومواصلاته . والحرب كلها مرت بمراحل ثلاث :

أولاً : قتال نظامي بين جيشين .

ثانياً : قتال نظامي تدعمه حرب أنصار لها دور ثانوي ولكنه هام وخطير .

ثالثاً : عاد القتال النظامي من جديد بعد ان استرد الجيش السوفياتي مقدرته الهجومية . ومن خلال هذا العرض الوصفي نقع على الخصائص التالية :

١ ــ اتصفت حرب الأنصار السوفياتية بدعم حملات الجيش النظامي

والتنسيق معه واشتملت على قضايا تعبوية فحسب .

٢ ـ دارت رحى المعركة على نفس الأرض التي تعرضت للغزو العسكري وتولاها الشعب الذي يقيم على هذه الأرض .

٣ ـ دارت المعركة في مواجهة احتلال عسكري اجنبي .

٤ ـ المعركة ذات طبيعة دفاعية .

ومن التجربة الكوبية تقع على نموذج آخر وخصائص أخرى :

١ ـ التنسيق العسكري مع الجيش النظامي المحلي مفقود ، فالثورة اجتماعية والقتال يدور في الأصل ضد هذا الجيش المحلي الذي يحمي نظام الحكم الفاسد .

٢ ـ انطوت الحرب الشعبية هنا على قضايا استراتيجية وتكتيكية في آن معا .

واشتركت التجربتان فيما يلي :

أ ـ توفر حقيقتي الأرض والشعب على النحو المذكور آنفاً .

ب ـ كلتا المعركتين ذات طبيعة دفاعية .

فما هي المراحل التي مرت بها الثورة الكوبية :

المرحلة الأولى : حرب العصابات ، التي انتقلت من الشكل المحدود المبسط الى شكلها الأوسع المركب ، وخاضتها مجموعات ووحدات صغيرة استهدفت ازعاج العدو وارباكه واشغاله واضعاف معنوياته .

المرحلة الثانية : حرب الحركة ، وخاضتها فصائل وسرايا وكتائب ، واستهدفت توزيع قوات العدو وتشتيتها وتثبيتها في مواقع دفاعية ، على ارض شاسعة ، وتجميد قدرتها على المناورة من خلال الاشتباكات المستمرة .

المرحلة الثالثة حرب التحرير الشاملة ، وتولاها جيش التحرير الشعبي

الذي تم تشكيله ابان الثورة لتدمير قوة العدو الرئيسية .

قد يتبادر الذهن لأول وهلة ان الشكل الرئيسي لحرب التحرير الفلسطينية هو على غرار التجربة الكوبية . فلنتريث قليلاً قبل اصدار هذا الحكم ولنحاول أولاً أن نستخلص الدروس المشتركة لخصائص الحروب الشعبية بمدرستيها ، ولنقارنها بمثالنا في الثورة الفلسطينية :

١ – تعتبر الحروب الشعبية بمدرستيها ذات طبيعة دفاعية ، فهي تنطلق من نفس الارض المدافع عنها ضد الغزو العسكري أو التسلط السياسي ، ويتولاها الشعب الذي يقف على هذه الأرض . بينا تعتبر الثورة الفلسطينية المسلحة بالقياس الى هذه الحقيقة ذات طبيعة مزدوجة دفاعية هجومية : هي دفاع عن الارض التي يجري عليها الاغتصاب دون الانطلاق من نفس الأرض المدافع عنها بل من الأرض العربية المجاورة حيث يقيم الشعب المشرد . وهي دفاع عن حقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه . ولكن العلاقة التي تقوم عادة على الأرض المدافع عنها بين الشعب والثوار مفقودة .

فهناك فوق الأرض الفلسطينية خليط غريب . هذا الخليط عين « على الثوار وليس عوناً لهم ، يقاتلهم ولا يحميهم .

٢ – كل الامثلة التي تقدمها الثورات إما ان تكون ضد غزو عسكري ، أو ضد التسلط الاجتماعي ، وتستهدف الجيش الغازي او نظام الحكم الفاسد . والثورة الفلسطينية المسلحة ليست ضد نظام حكم فاسد ولا ضد احتلال جيش اجنبي مرتبط ببلده الأم ، انما ضد غزوة من نوع فريد في التاريخ ، ضد غزوة تكاد تكون على غرار الغزوة الانكلوسكسونية لامريكا التي تمت على حساب افناء السكان الاصليين .

٣ – هنالك قانون حتمي يفرض نفسه على المدرستين : لابد من جيش نظامي يحسم المعركة في مرحلتها الاخيرة . والسؤال من هو هذا الجيش النظامي في الثورة الفلسطينية ؟ أهو جيش التحرير الفلسطيني ، أم الجيوش العربية كلها ، او بعضها ، أم الاثنان معاً ؟

قد تبدو الصورة قاتمة ، ولكن لنتريث قليلا ، فهذا هو المظهر السلبي للموضوع . أما المظهر الايجابي فيشير الى ان الثورة الفلسطينية تتمتع بخصائص وميزات تمكنها من الانتقال من حرب العصابات بشكلها البسيط المركب الى حرب الحركة ، ثم الى حرب التحرير الشاملة ، اذا احسنا – كما قلت آنفاً – بناء الاستراتيجية والتكتيك المطلوبين ، على ضوء المعطيات الراهنة والميزات الخاصة ، والواقع القائم . ويشير هذا المظهر الايجابي أيضاً الى ان النصر الحتمي هو للملايين العربية المتحفزة ، اذا تحركت الآلة العربية بشكل جدي وحاسم لدعم الثورة الفلسطينية المسلحة ، على النحو الذي تقدمه لنا الصفحات المقبلة .

وأحب بادىء ذي بدء ، ان الفت النظر الى اننا ونحن نتصفح خصائص الحروب الشعبية ، كثيراً مانقف مسحورين بالغلاف الخارجي المذهب لهذه الثورة او تلك ، دون ان ندرس محتواها فنقتلعها من أرضها ونبايعها ؛ وقد نعتبر نقطة انطلاق لنا ، ماهو في الحقيقة نتيجة هناك ، ونعتبر استراتيجية جاهزة لنا ماهو في الحقيقة حصيلة سلسلة من التجارب فرضتها ظروف معينة . وهكذا تمنح الكتب والكراريس التي تتحدث عن التجارب الثورية لبعض المثقفين الذين يميلون الى الأخذ بالتركيبات الفكرية الجاهزة وظيفة بلبلة الرأي العام .

هل نحن بحاجة الى أمثلة لتوضيح هذا الأمر ؟

فلنبدأ اذن بالحديث في موضوع قواعد الارتكاز كما اوردها ماوتسي

تونغ في كتابه « المشاكل الاستراتيجية لحرب الانصار ضد اليابان » ، والأمر في هذه القواعد انها قد عكست لونها على الصورة التي يجب ان تكون عليها الثورة الفلسطينية المسلحة عند البعض وبلغت بهم حماسة الجهل ان يدللوا بها على عدم جدوى الثورة الفلسطينية ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء وضع الثورة الفلسطينية المسلحة في حدود الحيز الزمني والمكاني الذي تجري فيه .

كيف حدث هذا الاختلاط ؟

تعطينا التجربة الصينية شروطاً لابد منها لنجاح الثورة المسلحة . اول هذه الشروط قواعد الارتكاز الثابتة . والامر في قواعد ارتكاز الثورة الصينية يجب ان ينظر اليه في الحقيقة على انه :

١ ـ استثمار جيد للشرط الجغرافي . فالصين تشكل ارضاً شاسعة الابعاد ، مترامية الاطراف ، يكملها نقص في مواصلات المناطق الريفية ، مما يعطي لهذه القواعد امكانية الصمود طويلاً في منأى عن آلة القمع التي ليست لها القدرة على الحركة الخاطفة الصاعقة ، وليست لها قوات منقولة بالطائرات الى كل مكان .

٢ ـ استثمار جيد للشرط البشري ، المتمثل في العدد الهائل من السكان والنسبة الكثيفة منهم في الريف خاصة ، حيث قواعد انطلاق الثورة .

٣ ـ استثمار جيد للنقص الذي يعانيه العدو في قواته المسلحة في ظل الظروف البشرية والجغرافية للصين . ويشدد ماوتسي تونغ على أن تشكيل هذه القواعد يتم فقط في المناطق المحررة او نصف المحررة ، اما المناطق التي يقيم فيها العدو حاميات كبيرة او تلك التي تكون في متناول قواته ، فلا يمكن انشاء القواعد فيها قبل افناء القوات العدوة .

ولنستمع الى ماو يوضح هذه الناحية بما يؤكد تحليلنا المذكور ، يقول : « ان هذه الشروط ـ اي شروط انشاء القواعد ـ يوفرها في الصين ويتيحها امتداد

الارض الصينية ، والنقص الذي يعانيه العدو في قواته المسلحة . اما في بلدان صغيرة مثل بلجيكا ،فان هذه الامكانية ضئيلة او معدومة . ومهما يكن من امر فليس هذا الشرط في الصين هدفاً يجب النضال من اجله اوصعوبة يجب حلها ، بل هو شرط وفرته لنا الطبيعة وينتظر منا ان نستثمره » .

٤ - والثورة الصينية كانت تملك قوات نظامية بلغت ٤٠ الفاً في بداية حرب المقاومة ثم ارتفع عددها الى المليون بحيث كان بالامكان خوض حروب ثابتة لحماية القواعد الثابتة .

ان مطالبة الثورة الفلسطينية المسلحة بقواعد ارتكاز ثابتة - مفصلة على مقياس الثورةالصينية - دون اي اعتبار لتباين الظروف الجغرافية والبشرية، وظروف آلة القمع الاسرائيلية ، سوف تقودها اما الى التهور والانتحار ، واما الى اليأس والهزيمة .

ان التجربة الصينية تعطينا دروساً مثلى في حسن استخدام عناصر الثورة: الارض والرجال ، ولكنها لا تعطينا استراتيجية جاهزة . هذا مايجب ان نتمثله في الثورة الصينية .

وتعطينا التجربة الكوبية درساً مغايراً مفيداً . وكما استمعنا الى ماوتسي تونغ فلنستمع الى كاسترو يقول : « ان قاعدة الثوار هي الأرض التي يتحرك الثائر داخلها ، والتي تنتقل معه كلما تحرك . ان قاعدةالارتكاز في المرحلة الاولى موجودة في حقيبة المقاتل » .

لقد كان كاسترو يتصرف كما لو كان العدو يعرف مكانه ،وينطلق لملاحقته من اقرب نقطة اليه ، ولذلك كانت قواعد الثورة الكوبية متحركة،وان وجدت في مكان واحد فبصورة مؤقتة . يقول ريجي دوبريه بهذا الصدد :

« لم يستطع الثوار اقامة قاعدة في قلب السييراماسترا الا بعد ١٧ شهراً

من القتال المتواصل . وحتى ذلك الوقت كانت قاعدة الثوار هي مجرد منطقة للعمليات ، وكان الهجوم المستمر خارج الخطوط هو الذي نجح في تحرير منطقة صغيرة من السييراماستورا . بدأت الفرق تنحدر اكثر فاكثر نحو السهل وهي تشدد غزواتها باستمرار وتمنع فرق العدو من دخول السلسلة الجبلية . لذلك يبدو ان قاعدة السييراماستورا قد انشئت من الخارج نحو الداخل ومن المحيط نحو مركز الوسط » .

إذن لم يكن انشاء القواعد في الثورة الكوبية هدفاً استراتيجيا للثوار في المرحلة الاولى ، كان الهدف الاول اشعال الثورة ، وجمع السلاح ، والرجال . وبرهنت التجربة الكوبية ان انشاء قاعدة ثابتة للثوار ليس بالضرورة شرطاً لاغنى عنه للانطلاق .

بعد هذا العرض يمنا ان نستخلص الدروس المستفـــادة من هاتين التجربتين ونقارنها بمثالنا في الثورة الفلسطينية .

١ ـ ان الارضية التي مكنت من انشاء قواعد الارتكاز الثابتة ، قبل الانطلاق في الصين ، وبعد ١٧ شهراً من الانطلاق في كوبا ، هي الشعب المقيم على الارض .

وفي مثال ثورتنا تشكل هذه الارضية خليطاً بشرياً زرع بديلا لشعبنا وبعطى مدننا وقرانا ، فاذا اضفنا الى هذه الحقيقة الثانية وهي :

٢ ـ الطبيعة الدفاعية المحضة لكل من الثورتين الصينية والكوبية والتي اقتضت ان ينطلق الشعب من النقاط التي يتواجد فيها ، والتي تقع عملياً داخل المناطق المدافع عنها، فان شروط الثورة الفلسطينية بالقياس الى هذه الحقائق تعني ان قواعد انطلاق الثورة الفلسطينية ذات الطبيعة الدفاعية الهجومية هي حيث

يتواجد الشعب الفلسطيني خارج الارض المغتصبة .

ولعل قائلا يقول : « ان عدوان حزيران قد طور امكانية انشاء القواعد الثابتة في كل من الضفة والقطاع [1] » . ولعل هذا الرأي ايضاًمستوحى من التجربة الصينية .فلنحلهاذن الى بعض الشروط التي اوردها ماوتسي تونغ لانشاء مثل هذه القواعد ، مناطق محررة اونصف محررة تقاتل عنها جبهة من العصابات قتالاًمستمراً .

وليس الحال على هذا المنوال في الضفة ولا في القطاع ، ويظل المفهوم الثابت لقواعد الثورة الفلسطينية الثابتة هي تلك التي تقع داخل الأرض العربية المجاورة .

آن لنا ان نتساءل الآن : وماذا عن القواعد المتحركة ؟

قبل كل شيء يجب أن نلم بصورة الوضع في كل من الضفة والقطاع ، فلا يغربن عن البال الشروط التالية :

ضيق المساحة ، توفر شبكة المواصلات ، سرعة تحرك قوات العدو ، قدرته على نقل قواته بالطائرات الى اي مكان يصله الثائر .

وكذلك فان كلًا من الضفة والقطاع تشكل منطقة دفاع ذاتي ، ولاتملك مقومات الدفاع الذاتي ، وتعيش الان في ظل ظروف العزل ومعركة التهجير والاجلاء التي ينفذها العدو .

ومع ذلك وفي ظل كل تلك الظروف البالغة القسوة فقد تجسدت ارادة النضال العنيدة لشعبنا بكل بروز وشموخ ، بابتكار نوع فريد من القواعدالمتحركة هي اقرب الى الخلايا الثورية ، فاثبت شعبنا بذلك انه قوة ، وانه ماض الى غايته وانه صانع غده الأفضل رغم الظلام الدامس كله .

---

(١) قطاع غزة

وخلاصة الأمر اذن في قواعد ارتكاز الثورة الفلسطينية المسلحة هي على النحو التالي :

(١) تتمتع الثورة الفلسطينية المسلحة بميزة استراتيجية هامة في قواعد ارتكازها الثابتة ، ومفادها أن هذه القواعد هي بمنأى عن آلة القمع الاسرائيلية لأنها في الارض العربية ، وبنفس الوقت تنسجم مع الطبيعة المزدوجة للمعركة « الدفاعية الهجومية » .

(٢) انه لمن الغباء ، تعليق انطلاق الثورة او التقليل من اهميتها بحجة عدم توفر قواعد الداخل الثابتة .

(٣) ان بين خلايا الثورة في الداخل وقواعد العمل في الخارج علاقة تفاعل وتطور متبادلين يتضح اثرها الفعال عند التحول الى حرب الحركة ، ومن الهام جداً في هذه المرحلة الحفاظ على هذه الخلايا بسرية وصمت وحرص ، وتتميتها بالقاء الثقل العسكري الحالي على قواعد الخارج بحيث تعطى افضلية تنفيذ المهمات لقواعد الخارج على بؤر الداخل كلما كان ذلك ممكناً .

العلاقة القائمة بين العملين الفلسطيني والعربي :

بقيت خاصة ثالثة من خصائص الثورة الفلسطينية المسلحة لا يسعنا أن نغلق البحث دون ان نشير اليها :

هذه الخاصة تقول أن العمل الفلسطيني والعمل العربي متفاعلان وبينهما علاقة عضوية ، اذا أحسنا استثمارهما ، دفعنا بالموقف العربي والثورة الفلسطينية في معركة تصاعدية على دروب المواجهة الجدية ، . هذا التفاعل المتبادل بين العملين يجب أن يستمر في كل مرحلة من مراحل الثورة ، وسوف يكون من شأن هذا الاستمرار والتفاعل ان يزيد كل عمل من نصيب الاخر في النجاح ويطوره ويقويه .

وبكلمة اوضح : للثورة الفلسطينية المسلحة ذراعان يمتد احدهما داخل الارض المحتلة ، ويرتكز الثاني في الارض العربية ، وهذا التركيز على ضرورة تطوير الموقف العربي لم يأت عرضاً ، او اتكالية ، بل هو محتم ينعقد عليه لواء النصر لأن صفة هذا التطور ومداه تنعكس من جهة وبالضرورة على صفة ومدى تطور الثورة الفلسطينية المسلحة كما وتحدد في النهاية من جهة اخرى متى تدخل الثورة الفلسطينية المسلحة مرحلتها الثالثة التي تتولاها الجيوش النظامية العربية او بعضها لتضرب القوة الرئيسية للعدو وتحسم حرب التحرير .

لهذا السبب ولغيره تجد الثورة الفلسطينية المسلحة نفسها دون الثورات العربية الاخرى — كالجزائر والجنوب اليمني مثلاً — ملزمة بالاعتماد على الذراع العربي في تنفيذ برنامجها العام اعتماداً مصيرياً حاسماً ، والاسباب هي :

(١) ان عناصر الثورة هي الرجال والسلاح والارض ، والنجاح الذي تحرزه اية ثورة رهن بحسن استخدام هذه العناصر ومفاتيح هذه العناصر الثلاث بأيدي الدول العربية .

فالرجال اداة الثورة الفلسطينية يقيمون في معظمهم داخل الأرض العربية تحكمهم قوانينها وانظمتها ومعتقداتها وارتباطاتها وتحركهم مواقفها ، وخصائص الثورة الفلسطينية كما عرفناها تلزم باستخدام الارض العربية كقواعد ثابتة للانطلاق والتموين والاستقبال ، والسيادة على هذه الأرض ليست للثوار .

وسلاح الثورة اما ان يكون اجنبي المصدر وعندئذ لابد من دولة عربية توافق على استقباله في ارضها وأما أن يكون عربي المصدر ولابد فيه ايضاً من الموافقة العربية .

هـــذا من زاوية الاسباب الفلسطينية في الثورة الفلسطينية ، وبقيت الاسباب العربية في الثورة الفلسطينية .

(٢) أقول أن القوة العربية عامل مساند بالنسبة لحركات التحرر العربية الاخرى ، أما في الثورة الفلسطينية فالأمر مختلف تماماً . الأرض الفلسطينية بالنسبة للبرنامج الصهيوني محطة نقطة وثوب لالتهام الأرض العربية جزءاً اثر جزء ، وعندما نتكلم ـ خاصة بعد عدوان حزيران الماضي ـ عن قضية فلسطين ، فانما نعني بنفس الوقت قضية سورية والاردن ومصر ، وقد احتلت اسرائيل اجزاء منها ، والأمة العربية ، لاهية كانت عن هذا الخطر الأكبر او غير لاهية ، تدرك اليوم اكثر من أي وقت مضى انه قد بدأ دورها في تلقي الضربة او درء الخطر. فهي اذن معنية بشكل مباشر وليس بشكل مساند ، هي معنية بسبب المصير الواحد لا بسبب من حسن الجوار او الرابط القومي فحسب ، ان شعار تحرير فلسطين ليس خدمة نقدمها للفلسطينيين ، فالحركة الصهيونية وضعت الأمة كلها بعد حزيران الماضي امام ابواب الموت وبوابة المذلة والهوان .

قضية فلسطين كما يقول الاستاذ رفيق خوري هي « القضية العربية » وأقول ان الثورة الفلسطينية المسلحة ليست ثورة فلسطينية ، ولا هي بثورة عربية ، انها « الثورة العربية » ولست أرى لها مستقبلاً خارج هذا النطاق .

والقوى التي تتآمر على ثورة فلسطين لا تتآمر في الحقيقة على ثورة عربية ، انها تتآمر على الثورة العربية ، فمع وجود اسرائيل لايمكن انقاذ أي نظام وسوف تلتهم الارض العربية جزءاً اثر جزء وتسقط الانظمة نظاماً وراء نظام ، ويسقط الانسان العربي جيلاً اثر جيل .

ان الحكم على الثورة الفلسطينية انها قد حققت غايتها في مرحلة ما لايكون بالنظر الى منجزاتها العسكرية فحسب وانما بالنظر الى الحصيلة التي قدمتها في الساحتين العربية والصهيونية في آن معاً . والنظرة الاصح تكون

بالاجابة على السؤال التالي : الى أي مدى استطعنا ان نستثمر العمل المسلح في الارض العربية بما يحقق التطور الذي تحتمه متطلبات المعركة . ؟

ان آلية هذه العلاقة اذن يمكن أن نوجزها بكلمتين : عمل مسلح ، يقابله تطوير عربي ، والسؤال الكبير هو : هل يتم التطوير تلقائياً وبمجرد قيام العمل المسلح في الارض المحتلة ؟ أعترف سلفاً ان تصوير العلاقة بين العملين بهذه الميكانيكية الساذجة المبسطة التلقائية مرفوض لديّ ، والبديل في تقديري هو ان تتمثل القاعدة الذهبية التالية :

« اننا نستخرج من الارض العربية بقدر ما نبذل فيها من جهد » وهنا يلوح لنا الدرس الذي نستخرجه من التجربة الصينية حينما استثمرت ببراعة نادرة الشروط الجغرافية والبشرية في الصين وقلة امكانات العدو في مواجهتها ، ولنقل مع ماوتسي تونغ ، ولكن بشكل آخر هذه المرة : « ان الشرط الجغرافي والبشري في الوطن العربي وضعف امكانات العدو في مواجهتها ، والمناخ الثوري الذي تعيشه الامة العربية كلها بالنسبة لقضية فلسطين شروط وفرتها لنا الطبيعة وتنتظر منا ان نحسن استثمارها » .

والجهد المطلوب هنا هو جهد مزدوج : جهد عربي وجهد فلسطيني ، ولم تأت تسمية هذه القاعدة بالذهبية عبثاً ، فهي التي تصون آلية العلاقة بين العملين من الاخطار ، وهل هناك أخطار تحدق بآلية هذه العلاقة ؟ الجواب ، نعم ، والخطر ، يكمن ، عندما تنقلب هذه الآلية من علاقة العمل بالتطوير الى علاقة العمل بالتوريط : وهل يمكن هذا ؟ والجواب ، نعم .

وهذه الاخطار في تقديري هي : —

الاحتواء والعزل من الجانب العربي ، والانقسامية من الجانب الفلسطيني .

فالاحتواء العربي للثورة كعزلها ، يجعل الثورة الفلسطينية امتداداً للوضع العربي ، تكرسه ولا تطوره ، تبايعه وتثبته وتحميه من التغيير الذي تتطلبه الثورة .

والانقسامية ، كالاحتواء والعزل من حيث النتيجــة ، ولكن بذرائع فلسطينية .

وعندما تشل امكانية التغيير مع استمرار العمل المسلح تشل بنفس الوقت امكانية تطوير الثورة التي هي انعكاس حتمي للتغيير العربي ، والمقصود بالتغيير هنا وعلى وجه التحديد : دعم الثورة الفلسطينية المسلحة وتمكينها من الانتقال من حرب العصابات بشكليها المبسط والمركب الى حرب الحركة من جهة والتحضير العربي الجاد للتدخل في المرحلة الثالثة لحسم المعركة بالجيش النظامي من جهة اخرى .

ان عدم تحقق هذا التغيير مع استمرار العمل المسلح بحدوده الدنيا ، سوف يؤدي الى العلاقة الجديدة : عمل مسلح محدود ، يقابله توريط عربي بالضرورة .
قد تبدو الصورة قاتمة مروعة ، فلا بأس ، انها الجانب السلبي من القضية ، ولقد قلنا في مطلع هذا البحث ان هناك ثلاثة اطراف تستفيد من التحريك العسكري للقضية ، وها نحن الان نوضح ما نقول ، ان هذا الواقع يحتم علينا ان نملك رؤية واضحة لابعاد الميدان الذي نتحرك فيه ، نستطيع أبعــاده ونتجنب الكمائن المتربصة المموهة ، لنضع حساباتنا بكل دقة ، هذه الحسابات هي الجزء الجوهري من استراتيجية الثورة الفلسطينية المسلحة .

فما هو الجانب الايجابي اذن ؟ انها الوحدة الوطنية الفلسطينية ، هذه الوحدة هي الهدف الاستراتيجي الذي يأتي في المرتبة الاولى من الاهــداف الواجب تحقيقها .

فالانقسامية الفلسطينية توهن قدرتنا على احداث التغيير المنشود ، وتقود بالضرورة الى الاحتواء او العزل . ولقد رأينـــا أخطارهما المدمرة على الثورة المسلحة ، وعلى أمن وسلامة الوطن العربي . ان ارادة التغيير العربية لايمكن ان تتحقق على النحو الذي تريده الثورة ، مالم تنزل الى الساحة العربية بثقل سياسي موحد ، بخطة واحدة ، برؤية واحدة ، بارادة تغيير موحـدة متماسكة ، لاتقبل المساومة والتنازل ، وباستراتيجية واضحة محددة .

وفي تقـــديري ان حرب العصابات الفلسطينية المسلحة بشكليها البسيط والمركب والتي يتطلب تنفيذها بمجموعات ووحدات صغيرة ، قد شارفت على نهايتها ، واننا على ابواب حرب الحركة ، التي تتولاها فصائل وسرايا و كتائب كاملة ، والتي تستهدف توزيع قوات العـدو وتشتيتها على أرض فلسطين كلهـــا ، وتجميد تحركها في مواقع دفاعية واشغالها بالاشتباكات المستمرة ، لنضع العـــدو بين خيارين كلاهما مر ، اما ان يمركز قوته الضاربة فيفقد أرضاً ، واما ان ينفلش فيفقد القوة . هذه المرحلة تتطلب ان نحضر لها ، الألوف الكثيرة من الرجـــال الأشداء المدربين ، وان نسعى ماوسعنا الجهد لتجميع كل القوى الكافية لضمان حتمية النصر فيها ، كما تتطلب ان نحضر لها الخطة الواحدة المحكمة ، والتكتيك الأمثل المدروس الموحد ، وهذه الامكانية مفقودة بالطبع في ظل التمزق وتعدد التنظيمات .

وفي تقديري ان التحليل الدقيق لظروف الانقسام التي تعانيها الحركة الثورية الفلسطينية المسلحة يشير بوضوح الى ان القوة التنظيمية لكل فئة على حدة ، لاتبرح على العموم صغيرة بالنسبة لمجموع امكانيات شعبنا وبالنسبة لمتطلبات المعركة ، ذلك هو الضعف الأساسي الذي يجب ان نتغلب عليه الآن ، والا فتحنا للعدو منافذ الى كياننا .

وخطورة الانقسامية لاتنحصر نتائجها السلبية فقط في عجزنا عن الارتقاء المنتهي بالثورة الى مرحلتها التالية بل تتعداها الى ضياع مكاسب المرحلة الاولى . ذلك ان العدو يريد ان يكسب الوقت ويستثمر هذا التحريك وبنفس الوقت لايريد ان يترك لنا فرصة استثمار هذا التحريك ، والارتباط بالشعب والتأقلم مع الارض، والارتقاء بالثورة ، وهو في هذا لايضيع دقيقة واحدة، يحاول ماوسعه الجهد ان يحصر الثورة ضمن ابعاد المرحلة الحالية قبل ان تنمو تمهيداً لخنقها .

ان الحرب المجزأة التي نخوضها هي حرب شريفة وثورية بالقياس الى عدم الحرب ، ولكن العجز في الارتقاء بها الى الحرب المتحركة مع تكريس الحرب المجزأة يشكل اكبر تناقض صارخ في الحركة الثورية الفلسطينية بمجموعها .

ولم يرو لنا التاريخ حتى الآن ان ثورة واحدة استطاعت ان تظفر بالنصر في ظل التمزق والانقسام . يقول جياب : « لقد اثبتت حرب التحرير الفيتنامية ان النصر على عدو قوي يمكن فقط عن طريق توحيد الشعب بكامله في قلب جبهة وطنية متحدة واسعة حازمة » .

وكان شعار الثورة الذي رفعه هوشي منه قائد الشعب الفيتنامي هو « الوحدة من اجل الانتصار » ومثاله شعار ماوتسي تونغ نفسه . وعلى غرار التجربتين الصينية والفيتنامية كانت تجربة كل الثورات الاخرى واقربها ثورة الجزائر العربية البطلة .

هناك الف الف امكانية ، ولكن ثمة طريقاً وحيدة لصناعة الانتصار العظيم للثورة الفلسطينية المسلحة ، الا وهي الوحدة الوطنية الفلسطينية .

من «عبيد الشعر»

إلى «الشعر الجماعي»

د. أحمد سليمان الأحمد

عرف تاريخنا الشعري القديم جماعة يقال لها : «عبيد الشعر» أي أنهم كانوا يكثرون من الاهتمام به ، ويحيطونه بكل ضروب العناية ، فهم يهذبونه ويشذبونه ، ويعرضونه على طبقة من القراء ، أو بكلمة أصح ، من المستمعين والرواة ، فيغيّرون كلمة هنا ، وتعبيراً هنـــاك ، وقد يحذفون ويضيفون تبعاً لذلك .

وطبيعي ، رغم هذا ، اننا لانستطيع أن ننسب هـــذه القصائد الى عمل جماعي يشترك فيه اكثر من واحد . ولكننا نستطيع القول إن مثل هذا العمل يصح أن يعتبر رائداً لحركة أدبيـــة لم يُقدّر لها الانتشار ، ولكنها مع ذلك أخذت تحاول أن

تثبت وجودها كمدرسة ، وأصبح النقاد يتهيأون كي يضعوا لها القوانين ، ويرسموا لها الحدود والتخوم ، ويأخذوا بأيدينا في أروقتها وصفوفها ومخابرها .

ولعل مايقوم به ، في حقل الشعر ، الفرنسيان سيرج سوترو وأندري فلتر ، هو شيء سيطرح أسئلة تنتظر رداً . لقد قرر هذان الشاعران الفتيان — إذ لم يتعدا عن ربيعها العشرين الا بمقدار مرمى عطر زهرة ربيعية — أن يكتبا القصائد معاً .

لايستطيع صاحبانا الادعاء بأنهما رائدا هذه المدرسة التي أزعم بأنها ستثير أخذاً ورداً ، كما يقولون . ولئن لم يشاءا الاعتراف بفضل السبق أو على الأقل بأثر « عبيد الشعر » القدامى ولو بشكل غير مباشر ، فانهما لايستطيعان أن ينكرا أثر المدرسة السريالية عندما كتب أحد عمدائها ، بروتون ، وأصدقاؤه مجموعة شعرية مشتركة .

لقد كتب سيرج وأندري اكثر من أربعة آلاف بيت خــلال عمر صداقتهما القصير . كتباهذه القصائد معاً . كانا أحياناً يتبادلان تصحيح ما كتباه . ينظم أحدهما قصيدة ، ويلقي الآخر نظرة عليها ، ثم يعود الأول الى قراءتها من جديد .

وأحياناً كانا يعملان معاً ، ويتقدمان مع القصيدة خطوة خطوة . يقترح أحـــدهما كلمة ، والآخر صورة ، فاذا اختلفا ناقشا الأمر وتوصلا الى اتفاق . ولم يتوقف انتاجهما عند كتابة القصائد معاً ، بل تعدياها الى المسرحيات .

قلت لابد أن مثل هـــذا العمل سيطرح اسئلة . وليس في ذلك شيء غريب . قد يقولون إن الشاعر لايعود منطلقاً مع أفكاره واسلوبه ، مع فلسفته ومفهومه للحياة والجمال ، اذ لابد أن تعترضه أفكار وأساليب وفلسفات ومفاهيم

لبست تلك التي أخذ بها ، ورضع لبانها – كي نستعير تعبيرنا البدوي – . وقد يؤدي هذا الاصطدام ، أو حتى اذا قلنا هذا الازدواج ، الى تغلیف والى تزوير .

ثم هل لنــــا بعد ذلك أن نلصق لقب الشاعر بكل من هؤلاء الشعراء الجماعيين على حدة ؟ إذ أنه لم يعد ، لمفرده ، يعطينا أي أثر .

أنا لا أتردد في القول إن مثل هـــذا العمل مفيد ، رغم أنه لن يلاقي أنصاراً كثيرين أو اتباعاً عديدين . وهو مفيد لأنه ليس هناك من ضير في تلاقي ألوان من الابداع تحاول أن تجد لها تجسيداً فنياً جديداً .

وهو مفيد لأنه حركة ولأنه حلقة من سلسلة التفتيش عن أشكال وعن محتويات جديدة . قد ينجح وقد يفشل . ولكن محاولاته لن تذهب عبثاً ، بل سيجيء حتماً من يفيـــد منها ويكون أسعد حظاً بها ، ونكون نحن أسعد حظاً بانتاجه .

وأراني لم اتحـــدث عن تجربة « سيرج » و « أندري » من حيث هي انتاج ذو حدود ومعالم وأعماق . ومع أننا ، فيما قرأناه أو توصل الينا ، لسنا براضين عن نتيجته الفنية أو الفكرية ، فاننا لسنا ضد هذا الاسلوب في الكتابة ، ولا ضد هذا اللون من المحاولات . ولعله يتسع ، ويكثر فأكثر ، حتى يصبح الشعر يستثير مشاركة المجتمع بأسره ، فيغدو هذا الأخير هو الشاعر الأكبر ، وان لم يكن كذلك ، فصاحب الوحي ، والناقد ، والمصحح .

ترى ، أيفقد الشاعر حريته ، أي أصالته بالتالي ، في العمل الشعري الجماعي ؟ اني لا أريد له ذلك ، ولن يريد لنفسه هـــذا الموقف ، ولن أرى مستغرباً أو مستبعداً أن نسمع قريباً خبر انفصام هذه الشركة بين الشاعرين ،

فيكون الأمر ، أولاً وآخراً ، اذا أحسنا الظن ، محاولة تجديدية اغنائية للمحتويات والأساليب الشعرية .

وقد يجد البعض في ذلك — ولن نناقشهم أو نلومهم — فناً من فنون الدعاية الماهرة التي اصبح الكثير من الأدباء — مع الأسف — يضعونها في حسابهم، قبل أن يضعوا الفن والابداع والثقافة والصدق والاخلاص .

اعلان

لما كانت الهيئة الدولية للمسرح التابعة لمنظمة اليونسكو قد نظمت مسابقة للتأليف المسرحي فان وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي رغبة منها في تشجيع التأليف المسرحي المحلي واظهار انتاج المؤلفين على المستويين العربي والعالمي تعلن عن اجراء مسابقة لهذه الغاية وفق الشروط التالية :

١ – ان يكون مؤلف المسرحية من مواطني الجمهورية العربية السورية او العرب المقيمين فيها اقامة دائمة .

٢ – أن تكون المسرحية اجتماعية او قومية ذات هدف إنساني ، وبشكل خاص من مستوى فني رفيع .

٣ – أن تكون صالحة للتمثيل وأن لايستغرق عرضها اكثر من ثلاث ساعات على أبعد حد .

٤ – أن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة او مكتوبة بخط واضح جداً .

٥ – تقدم المسرحية الى وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – مديرية التأليف والترجمة – ضمن غلاف عليه رمز خاص ، ومعه مغلف آخر فيه اسم المسرحية واسم المؤلف الكامل والرمز الموضوع على الغلاف الأول ، وينتهي موعد قبول النصوص في ١٥ آب ١٩٦٨ .

٦ – يسمي وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي لجنة لدراسة المسرحيات المقدمة ويكون قرار اللجنة مبرماً بعد مصادقة الوزير عليه .

٧ – تعلن الوزارة اسماء الفائزين بجائزة المسابقة وهي (١٥٠٠) الف وخمسمائة ليرة سورية للفائز الأول و (١٠٠٠) ليرة سورية للفائز الثاني .

٨ – تحتفظ الوزارة بحق تمثيل النص الفائز ويجوز لها طبعه وترجمته .

٩ – تحتفظ الوزارة بحق تقديم النصوص الفائزة الى المسابقة الدولية للتأليف المسرحي التي نظمتها المؤسسة الدولية للمسرح، وللفائزين الحق الكامل بالجوائز الأخرى الممنوحة من قبل الهيئات أو المؤسسات الدولية .

دمشق في ٣٠ / ٤ / ١٩٦٨

وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي

سهيل الغزي

القصة

وصيّة في صيف محترق

بقلم حيدر حيدر

« في حزيران الماضي احرق شاب وسيم مصاب بانفصام في الشخصية من حي ركن الدين بدمشق ، نفسه بالبنزين ، على ايقاع موسيقى زنجية في غرفة مغلقة بعد ان كتب وصية بسيطة ومهمة : « العالم مليء بالأخطاء والانسان لايستطيع أن يفعل شيئاً . انني أموت لأنني لا أصلح » .

ومر عام . وليس مثلنا من يتقن رصف الأيام . ثيابك الملفوحة ، ماتبقى منها ، تنام في صندوق العرس . وفي مثل هذا اليوم هطل المطر صيفاً .

ولم يكن لي سواك من مخلوقات الرب ، وعجوز مغربة العمر تقضي في الصلوات الليلية زمانها الاخير .

— أصحيح ان ذلك قد حدث فعلا ؟

الحديث من الرعب والمفاجأة بحيث يوقف فعالية الذهن ، أكاد أقول : يدع الحجارة تنتحب .

وما انتحبتُ أمام الحضور .

— لمـــاذا ؟

لقد متّ في اللحظة التي كان المطر ينسكب فيها ، وبالمجانية نفسها .

انتحب المطر عنى بما فيه الكفاية ، وقال المعزّون كلماتهم التقليدية باجلال مفتعل ، ومخف ورائي اصيل ، ورفض الشيوخ ان يصلوا : المنتحر مجوسي لاتجوز عليه صلاة الجنازة . وتحت سماء دمشق العذبة الحزينة ، شيّع الفقراء وحدهم نعشك الذي لم يصل عليه .

— فكيف حدث ذلك ؟

* * *

من يوم الى يوم ينسى البشر همومهم . كل فجر حافل بألم جديد ، فكيف بالعام يزحم عاماً آخر ؟

ها هم يسبّحون باريهم ، ويتاجرون ، يصفقون في باحات السيرك مأخوذين بالضحك والتثني . أما أنا فلم أنس كيف حدث ذلك .

الكوابيس المفزعة تتوالى كطيور سوداء متوحشة في ليالي الوحدة ،

وزفير الحريق ينمو ويتعاظم ، مغطياً حدود الافق ، والناس نيام .

ـــ الحريق ... الحريق .

وتوقظني العجوز ملهوفة عزلاء كالطفل ، وإذ أفيق تتلو آياتها القديمة ، تسجد وتدعو ، ثم تسافر الأيام .

في الأيام الأولى حضر بعض الناس . صحاب وجيران وأقارب . ناح من ناح حزنا ورياء ، تمتموا أدعية وتراتيل حفظوها عن اجداد اجدادهم ، ثم غابوا . ومع الشباب المحترقة والعجوز وأشباح الفجيعة ، بقيتُ .

وامتطى الزمن مهره وولّى .

كلما حاولت التذكر والدخول في شبكة ايقاع خطوات الموت يجيبني حاجز الموت الاصم : لقد مات وكفى !!

ـــ مات محترقاً في يوم مطير .

كان ذلك مفزعاً حتى الدهشة ، غريباً كولادة امرأة تحت قصف القنابل .

ومع انني كنت أسخر من صلوات العجوز الليلية ، وآخر ما كنت افكر فيه : الايمان ، الا أنني في لحظة الاحتراق ، صرخت بوجع أم تثكل : نجه أيها الرب وأنذر نفسي اليك !

وما نجوتَ .

ومع مرور الأيام ازددتُ يقيناً بأنني ماربيتك كما ينبغي . كنت ناقصاً على نحو أوحى اليّ ان دمي وحليبي كانا مشويين .

* * *

من التاريخ الى الانسان ، من الوطن المهدد ، من الرجل في المرأة ، ومن شهوة الاغتصاب الفج بينها ، وُلدتَ .

كان وجهك رائعاً كالبدر ، وقامتك ناشئة كنخلة برية في واحة . يوم خطرت امام صبايا الحي صحن بنشوة سرية : ابن الحرام ما أحلاه !

ونموت جسداً بديعاً .

في ليالي غربتي الروحية ،أذكر كنت أزحف الى فراشك . أشم رائحتك، أمرغ وجهي فوق جبينك وخديك وشعرك وزغب رقبتك . أركع قرب السرير حتى مطالع الفجر . أرنم لك اغنيات ربيعية ، وانتحب ضراعة لتشب .

وفي الصباح تدعو ربهـــا جدتك العجوز ، ان تكبر وتبقى لنا وتصير ضابطا قد الدنيا ، قد الفرح .

في العيون لم يبق دمع . استله الزمن والسهر عليك . لذا لم أبك عليك في حضرة الموت . وبين الشفاعة والصلوات رحت تورق وتخضر .

في كل مكان كان حب ، الا هنا . وفي كل مكان كانت براعم الحرية تتفتح ، الا هنا . وبيني وبين والدك لم تحدث اختيار ، وكنت ثمرة القسر الفجة .

قهراً زوجوني له ، وكنت في الرابعة عشرة . وفي ليلة شاحبة تمخض رحمي بك اغتصاباً .

أقول ذلك وأنت الآن كومة من لحم وعظم محترق ، رمة في قبر مغلق ، وقد مر على انتحارك عام كامل . ومن اقصى الارض الى اقصاها ليس مثلنا في البشر من يرتب الايام ، من يصنع منها توابيت وأسرة ، لنسيان الماضي .

– لماذا جئت قبل الأوان ؟

– ولماذا خارج هذه الأرض تولد المواليد في أوانها ؟

كان ابوك عاجزاً عن نيل بغيته على نحو سوي وصحي ، وكان وحيداً ملفوحاً بالحزن والرغبة . تشهاني وكنت توبجة في طور الفرح الاول ، فاغتصبني

تحت راية الشرائع ، فجئت بي الطلعة كالشروق ، جاؤا كأولاد الحرام كما يقول عامتنا .

ـ هل كنتُ مذنبة لأنني لم أستطع أن أعطيه غير جسدي ؟

استطيع ان اتخيــل الحريق كيف دبّ الى جسدك ، كيف تنامى زهوراً صفراء مفترسة ،وراح يرعى ذلك الجسم الحبيب الذي خرج مني .أستطيع أن أسمع تأوهاتك والحشرجات المكتومة ، والحريق ينسّ الجلد فتتاوى بأشجاعي العظيم ، والناس يسبّونك ،يهزؤون ،حفاظاًعلى حياتهم المغتصبة وقصورهم التاريخي.

ـ ما الذي بقي لهؤلاء الاحياء في أزمنة القهر ؟

وفي اللحظة نفسها ، والدخان يحجب جراح العالم ،يطفىء آخر ذكرياتك عن الناس والحركة ، انهمر المطر على السهوب والغابات ، وغمر الطرقات والخنادق . سحّ على زجاج الأحبة والهاجعين ، وفوق خيام المشردين والجنود .

مطر ... مطر ... وحريق ، موت وبشائر ، سر الحياة الاعظم الذي يشي بالروائح فقط .

لكن الذي مات لايعود .

* * *

ـ اسمعي . يجب أن تعودي اليه .

ـ لكنه هجرنا وغادر الوطن ؟

ـ سأبحث عنه في كل بقاع الأرض واعيده .

ـ كلانا لايحب الآخر !

وتصرخ كأنما الحريق يشبّ في غابات نفسك آنذاك :

ـ لكن انا من يدفع ضريبة الفصام !

وأحمت تقديساً لألم نحن غرسناه فيك .

ايام قاسية وحارّة . طواف خارج الحدود ، بحثاً عن ذلـــك المهاجر الحزين . تلقاه ، تتضرع اليه ان يعود فيحرن ويمضي بعيداً .

وخائباً جريحاً ، تعود .

ايام تمضي وقراءات وموسيقى وخمر . موسيقى الزنوج المتوحشـــين المقهورين ، موسيقى الغضب والسقوط في آلاباما والمسيسبي ، في غرفة مغلقة وانت وحيد ومحاصر .

تلك كانت هوايتك قبل ان تلتحق بالجيش .

ـ هل قلت المطر ؟

في عصر الحزن والموت واللجوء ، يهمي المطر . يعيد للارامل ذكرى ازواجهن ، للعشاق رائحة الحب في الحدائق والجبال ، للمغتصبين أمل العودة ورائحة المزارع النائية . اما انا فيذكرني باللحظة الزمنية التي نازعت فيها في غرفة مقفلة ، اللحظة التي تحملت خلالها ثقل آلام المرض مجتمعة ، ثم انطفأت .

ـ لماذا هنا بالذات من اقصى الارض الى اقصاها ، الزمان المحزون يقذف لقطاء الناقصين الى الوجود ؟ ولماذا نحن في وطن مكسور ؟ سألت الطبيب يوماً عن حالتك ، فقال : « مرض وراثي ينتقل عن طريق الدم . نوبـــة الانفصام تستمر خمس دقائق فقط ، يشعر فيها بالاضطهاد وكراهية العالم ، فينعزل عما حوله ، تحدوه رغبة طاغيـــة في الانتحار . واذ تمر الدقائق الخمس اما يعود سوياً او ينتهي » .

ومرت اكثر من دقائق خمس .

ساعات وأيام وشهور وسنوات . الصيام والصلوات . التشهي والصخب والنهم . ثم نسيان المطر والحرائق ، والخيام المزنوقة تحت الريح . وماتزال تغط .

* * *

كنتَ مغبوناً في عصر ذلك اليوم . على ثيابك غبار وفي عينيك همود ،

ولم يكن معك سلاح .

ـ حمداً لكل شيء على سلامتك .

ولم تنبس . كنتَ منهكاً .

وقبّلتك . شممت رائحتك . مرغت انفي ووجهي على غبار شعرك ،

تنشقت رائحة العرق على سترتك : أي فرح يغمرني وأنا أرى جنديي الباسل

يعود !

وزغردت العجوز .

فرح غامر كهطول المطر ، كأشعة الشمس الشتائية ، أزهر في ضلوع

البيت اليتيم . أشعلت الجدة مجمرة البخور فانعقد الدخان وفاحت الروائح ،

حملتها الريح للجيران احتفالا بالفارس الذي نجا .

كنت مرهقاً من السير ، أذكر ذلك . وبذلك تخدوشتان وملح العرق

قد تخثر على خطوط جبهتك ، ونضح من خلال الثياب مبيضاً تحت ابطيك ،

وحذاؤك العسكري باون الغضار .

ـ والآن هات حدثنا عن الذي جرى !

كعقاب جريح رنوت الينا . شعّت العينان غضباً ، ونضح الوجه الكظيم

مرارة . ابتلعتَ ريقك كأنما سكين تحز الحلق . ومن النافذة بصقت بصاقاً

جافاً ملوناً بالغبار .

ـ إيه . كيف كانت المعارك ؟

هززت رأسك ، ثم رسمت على شفتيك اليابستين بسمة يابسة ، تحاكي

ابتسامة ميت : معارك ! هه . أية معارك ؟

ـ الحرب !

فككت أزرار السترة الزيتية ، والاصابع ترتعش . نزعت الرتبة والأوسمة . لففتها ثم قذفت بها إليّ : خذي . اذهبي انت الى الحرب .

وضحكت : أنا أصير جندياً ؟

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ وانتم ؟

ـ نحن ؟ ها .. ها . قال نحن .

وعكفت سبابتك نحو الأرض ، ثم تناولت من جيب بنطالك رزمة من الاوراق الملونة الجديدة ، فردتها بين اصابعك ثم قذفتها نحو الفضاء فراحت تتناثر فوق البلاط محدثة خشيشاً خافتاً ، وراحت ضحكاتك الهستيرية تتعالى :

خذي مالاً . خذي !

لحظتها خشيت أن تكون النوبة قد حضرتك . كنت قد بدأت تصفرّ ثم تتغضن خطوط جبهتك ، يزرق وجهك وتتقلص عضلاتك ، وعيناك تشعان ألماً واحمراراً ، فقلت في نفسي : لقد بدأ يدخل تيه انفصامه .

سألتك : ماهذا ياحبيبي ؟

فتمتمت منسلاً من حضور النوبة : رواتب اضافية للشجعان ، وبصوت كالرعد قلت : هذه هي الحرب ياأماه !

خيم صمت ووجل وتوقع . قطعته انا بعد حين محاولة اخراجك من تيهك : لكن يديك مخدوشتان ؟

وهنهت منكسراً : من الزحف والاختباء .

تذكرت النقص والخلل الذي غرسناه في دمك ، فأدركني شعور مبهم

بحارة الهيولى . مزحنا لأقصيك عن حالتك ، ورويت لك نكات قديمة عن الشجاعة والنصر ، وحكايا مريحة للاعصاب . وتوسلت العجوز لباريها أن يمحو الظلم والغدر من العالم ، وان تغمر السكينة والطمأنينة القوم المسالمين الاتقياء . فتخدرت .

وفوق سريرك المصان ، المغسول بالغار والصابون المطيب المرشوش بالعطر ، انشلحت بحذاء القتال .

وقبل ان تغفو همهمت تنهيدة يأس . انتهت الحرب اذن !

• • •

لم يعد والدك من هجرته . ينتقل الآن من بار الى بار ، من مرقص الى مرقص آخر . يهيم ثملا محزوناً في شوارع المدن العربية في متاهات المدن الغربية ، بحثاً عن امرأة وحرية وعن نفسه الضائعة . ينام على الارصفة وفي الحانات المهجورة ، يضرب في مجاهل الارض فيزداد ضياعاً وحزناً ، ولا يلقى رضاه المفقود .

وانت تنام الآن في حفرة دامسة ، ممتزجاً بالارض بعد ان أفل نجم حياتك وهوى ، هاجعاً تحت السكينة واليأس في ظلام سحيق .

سحيق .

منذ عام ونحن نتلهى بعد الايام التي تمضي . أيام قاسية كامتداد المدية في عضلات القلب ، ولا من يسمع أنين الارض ونواح الأمهات الثاكلات في الليالي العميقة الحزن .

طائرات يا أمي . أصوات ودوي . هي القيامة يا أمي . نيران مدا الأفق . قيامتنا يا أماه . دعيه يعود . أريد أن يعود . الطائرات تحلق فوق الخندق وفوق البيت . أين أبي ؟ دعوني أصد الطائرات المغيرة . جسدي أماه . جسدي يسقط .

الارض تحترق . البيت يحترق . حياتي . مازال حياً . أماه أنت صبية كالزنبقة والرجل الشرير هجرنا . صوب الخندق هاهم . دعوني أطلق . حرروني . بندقيتي فارغة . بندقيتي عصا . لن تكوني سبية . الحريق . . . الحريق . سحابات سود كالحة تتقدم من الغرب . لا أمل : عودوا أيها الرجال ماعاد لكم ملاذ . آخ . . . آخ . . . العصر يسقط اذن . الانسان . كل شيء . الدم والتاريخ . الوراثة . العالم كريه . العالم يختنق . أماه . الانقراض . الانقراض . . . اطفال يقاومون من الشرق على بساط الشمس . وحدهم . وحدهم . اراهم ينضجون بالضوء والمطر الموت والحياة معاً . . آ . آ . .

واذ تفيق من هذيانك ، تراني جاثية قرب السرير فتسألني :

أين أنا ؟

أهز سريرك بدعة : أنت في البيت . حلم يا حبيبي ، حلم . نم . ولتنام أدندن أغنية قديمة يغنونها للصغار في المهد ، وتسبح عناكب في السقف بينما صدى الاغنية يضيع في متاهة الليل الصامت .

- هل ما زال بيتنا لنا ؟ تسألني بمرارة فراقية .

أقول : مازال .

— أين أبي ؟

وبنصف اغماضة أرى طيف ابيك التائه كأغنيتي الضائعة مهاجراً حزيناً يشمل ويبكي ، لابيت يؤويه ولا اهل - موغلاً في قفار الأرض مطروداً تحت سماوات غريبة ، نائياً تاريخه وابنه الخارج من ضلعه ، والمرأة المكسورة الخاطر تواسي جراحها في الصمت وتسهر عليك .

* * *

« ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق »

قالت الشيوخ .

وقال فقراء العامة وهم يسيرون خلف النعش المجلل : مباركة النفس الملوثة تموت بشجاعة لتمهّد للنفس النقية .

كم تمنيتُ ان افديك وانت تشتعل في الغرفة ، بسبك الحريق كما سبينا في ذلك اليوم الأسود .

أذكر كان المطر يسبح على النوافذ ، وصوت الرياح الجديدة يدوي في سمعي ، صاماً صوت الحريق المتدفق فوق الجسد الذي ارضعته وربيته بالحليب والغناء حتى نما وترعرع ليشيل احزان الايام القاسية .

لكنك كنت تفنى وتترمد كما الومض ، يطهر الحريق نفسك في اللحظة التي خيل إلي فيها انك تغتسل من غار الحرب .

تماماً كما قال الطبيب . دقائق خمس ونوبة الانفصام ترمح في سهوب نفسك والدم الملوث يغشي البصر . الانكسار وموسيقى الزلوج والغضب في آلاباما والمسيسبي . موسيقى الذل والاضطهاد . واصوات البوذيين الذين يحترقون في الساحات العامة تتحشرج تحت ضربات الألم الملغي الحدود . كنت تعزف أنشودة البعث في الموت . وكان المطر هو التقمص الجديد .

— لماذا احترقتَ ؟

أي ذهن يستطيع ان يتصور الانسان في عافية المتأججة ، في سموقه النامي كشجر الحور ، في ضجة جسده الدافق كينابيع الجبال الوحشية . ثم يتصوره كومة من عظام معجونة باللحم والدم المتفحمين ، ملفوفاً داخل خرقة بالية كخيام المشردين ، مرمياً فوق ارض فقراء ، ثم لا ينفجر ؟

— هل تراك تركتني للاغتصاب الاقسى ؟

* * *

أراقب دبيب خطوات الزمن في وحدتي المنسية . أعرف لماذا احترقت في الصيف الذي مضى . اقرأ وصايا ايوب في سفر الاسفار القديمة . اتذكر زخات المطر ليل احتراقك . تلفحني الريح القادمة من الشرق المتوهج ، اعانق اسراب الاطفال القادمين على خيوط الشمس كالحمائم البيض ، وأتمم وصيتك بفرح فجائعي : « لا تحزني . تزوجي غير أبي ، ولدي اطفالاً اسوياء لا يهجرهم آباؤهم ، اطفالاً لا يحبون موسيقى الزنوج والعزلة ، يطلقون النار ولا يتراجعون . »

مرآة الليل

حسام الخطيب

كانت أقدام المجموعة الثلاثية تطأ التراب الغض مترفقة حذرة ، فالليل من حولها حالك دامس ، والطريق ليس إلا خيطاً رفيعاً ملتوياً حول سفح الجبل تتناثر على جانبيه ، واحياناً كثيرة في وسطه ، صخور مختلفة الحجوم مبعثرة ، تجعل أقدام المدلجين الثلاثة دائماً على حافة انزلاقة كامنة أو عثرة متوقعة .

كان قائد المجموعة يتلمس الطريق بحاسة ادارية غريبة ، وكان الفدائيان الآخران يتبعان خطواته ، وكانوا يسيرون معاً تحت سماء محاقة ملبدة بالغيوم مطبقة على الأرض ، في انسجام وتناسق كأنهم جوقة موسيقية مصغرة طالت الألفة بين عازفها الرئيسي وشريكيه حتى أصبح في غنى عن الاشارات والتوجيهات، وحسبه أن يتفاهم معهما بـاهتزازات ـ ادارية كان بعضها يتجه الى الخلف ليعطي الايعاز غير المنطوق ، وبعضها يتجه الى الأمام ليكشف خفايا الطريق الجبلي الوعر المحفوف بالمخاطر .

بين الثلاثة كانت هناك أكثر من صلة حميمة . كانت هناك صلات من نوعيات مختلفة تجعل منهم كلًا في واحد .

ربما كانوا يرتدون بزات عسكرية موحدة . ربما كانت الخوذ فوق رؤوسهم تحمل شعاراً مشتركاً ـ خريطة مصغرة لبلد في شكل جذع شجرة محصور بين بحر ونهر تتوسطه قبة عالية مشعة ـ ربما كانت البنادق المدلاة من أكتافهم من صنع واحد . ربما كانت قلوبهم تنطوي على (كلمة سر) واحدة . ربما ... ربما ... في مثل هذا الظلام العاتي الأصمّ يصعب الجزم بأية حقيقة حتى لو كانت شعار خوذة أو (ماركة) بندقية ... ولكن هذا الانسجام القدسي الصامت الذي يواكب مسيرة المجموعة الصغيرة لايمكن إلا أن يكون ظلًا للجو الانساني المشترك الذي يعمر قلوب الثلاثة ويمدها بالقدرة على التحمل والصمود والرؤية ... كان قائد المجموعة المكلف بالاهتداء الى الطريق والحماية طرفاً ، وكان الفدائيان الآخران من خلفه طرفاً آخر وقد أطبقت قبضتا يديهما اليمنيين على عمود خشبي تدلى منه لغم كبير ، وان الثلاثة ليحلمون بشرف تفجيره في مستودع الأسلحة التابع للمستعمرة اليهودية القابعة في الطرف الآخر من الجبل .

فجأة تسمرت رجلا القائد في الثرى الغض ، وفي اللحظة نفسها تسمرت الأقدام الأربعة من خلفه في تجاوب عفوي فوري لم يكن للرؤوس المثبتة على الأجسام أي دور فيه . وفي مثل لمح البصر ارتقت الأجسام الثلاثة خلف صخرة على يمين الطريق ، واستراح اللغم على الأرض ، وأشرعت ثلاث بنادق رشاشة باتجاه الطريق . . . وما هي إلا ثوان حتى انحرفت البنادق الثلاث انحرافاً بسيطاً الى يسار الطريق في محاولة لتتبع هدف غامض لم يكن ممكنا تبينه في الليل إلا بالحاسة الرادارية العجيبة التي استجار بها القائد فوراً . لقد كان يثق بها دوماً ، بل انه ليؤمن بها ايماناً صوفياً مطلقاً . . ولكنه اللحظة في شك من أمره ، بل انه على وشك الاقتناع بأن هناك عطلا ما قد طرأ على راداره ، وإلا فما باله يلمح عن الشاشة أشباحاً ثلاثة تختفي في الجانب الآخر من الطريق على مرمى البندقية ، ثلاثة أشباح تسمرت أقدامها في الأرض تماماً في النقطة الزمنية التي شهدت تسمر أقدام مجموعته وارتقت وراء شيء مبهم لابد أنه صخرة على يمين طريق هذه الأشباح ، تماماً كما فعلت مجموعته ، ولابد أنها مدت بنادقها الثلاث نحو مجموعته تماماً كما تصوب مجموعته بنادقها باتجاه الاشباح .

– هل أفتح النار ؟ ولكن على من ؟

من هذه الاشباح الثلاثة التي تُقلِّدُ كل حركة لمجموعته كأنها ظلال لها في مرآة غامضة اسطورية . هل هناك مرايا ليلية تستعين بها مخلوقات الليل التي تقطع عليها تحركات المدلجين هدوءها وسكينتها . ولمَ لا ؟ هل يعقل ان يخلو مثل هذا الليل البهيم من الجن والعفاريت ، أو على الاقل من ناس غير الناس الذين نعرفهم في النهار ، . . . لابُدَّ ان يكون لهؤلاء الناس مرايا غامضة مثلهم وممتدة امتداد الليل فوق الكرة الكبيرة التي نعيش فوقها .

في مثل لمح البصر كانت الافكار تومض في ذهن القائد، مثيرة في نفسه موجات شتى من الاحاسيس تنسجم في حركتها مع دقة ايقاعية عنيفة تطرق جدران دماغه ويسمع صداها الصامتان الآخران المنبطحان على الثرى في عناق مستوفز للبندقية والصخرة في آن واحد .

— هل افتح النار ؟ هل افتح النار ؟ ولكن .. على من ؟

في مثل طرفة عين تراءت له صورة طفله الصغير « عمار » ، عمار المغرم بتحطيم المرايا ، عمار الذي يقف امام المرآة ويحارب ظله ، وحين يعجزه الضرب بيديه يتناول اقرب مادة صلبة اليه ويقذف الظل الماثل امامه في المرآة . هل يكون كطفله فيفتح النار على ظله ، على صورة نفسه . ولكن النار هنا تكلف غالياً ، والدوريات العدوة المتربصة تنتظر اشارة من هذا النوع لتصب أنوارها ونيرانها في كل مكان .

في حياته الفدائية الطويلة نسبياً شهد مغامرات عجيبة وخاض مواقف محرجة ، واستمع الى دروس نظرية واشترك في تطبيقات عملية كثيرة ، ولكن كل هذه الخبرة مجتمعة لاتمنحه أي بصيص من النور لفهم هذا الموقف والتصرف به على نحو يضمن سلامة مجموعته واللغم الذي حملته مسيرة ساعتين في الشعاب الملتوية والظلمات الخانقة .

— هل افتح النار ؟ هل افتح النار ؟ ولكن .. على من ؟

انه لايستطيع ان يستمر في تساؤلاته ، فربما فتحوا النار فجأة ، وربما بادروه باطلاق قذيفة من بعيد . انه مسؤول عن مهمته وعن سلامة مجموعته وعن اللغم الكبير الذي لايستطيعون ان يحملوا عليه دوماً .. آه لو ان هذه الاشباح تتحرك قليلا ، لو تبدر عنها أية حركة ، اذاً لانطلقت رصاصاته آلياً ودون استئذان .

وأراحته من المعضلة التي التهبت بها جدران دماغه . ولكن لأمر ما لم يعد يبدو من الاشباح الثلاثة المقابلة سوى ظلال لخوذات ثلاث لاشك ان تحت كل واحدة منها عينين تقدحان انتباهاً وتربُّصاً تماماً كما هي الحال في مجموعته .. ولماذا لا يقوم هو نفسه بحركة ماليرى مدى انعكاسها في المرآة . ولكن .. الاوامر .. الاوامر تقول بالتربص والسكينة الكاملة لدى مواجهة أي خطر ظاهر او كامن. وتجنُّب الاشتباك بأي ثمن ، وعدم اللجوء الى فتح النار الا عند الضرورة القصوى . . . صحيح .. غير ان هناك احوالاً نفسية لا يمكن ان تحيط بها الأوامر .

— هل افتح النار ؟ لا .. الأوامر .

وخطر له ان يستشير رفيقه ، ولكنه أبعد هذا الخاطر فوراً . فالهمسة لها قيمتها في قلب الليل المرهف . وهما ، على أي حال ، لابد ان يكونا في مثل موقفه ، والأوامر تحتم عليه ان يكون حاسماً حازماً ، أن يبت في كل موقف بنفسه وأن يصر ولو على الخطأ .

نقطة مطر خفيفة بدأت تنقر على خوذته وخوذتي رفيقيه . كانت ذات ايقاع مريح افسد اطراد الايقاع الآخر . لم تعد (هل أفتح النار) تضج في دماغه وحدها بلجاجتها المنتظمة الرهيبة . انها مازالت هناك قوية عاصفة الا انها اخذت تتحول تدريجياً الى ايقاع متقطع تخالطه من الخارج ايقاع قطرات المطر الخفيفة ويتقاطع معه في الداخل ايقاع جديد يفتح آفاقاً مبهمة ولكنه يثير مايشبه الشعور بالارتياح في قلب القائد الحائر .

— من هؤلاء ؟ من هؤلاء ؟

هذه هي المسألة .. وحديث المرايا والاشباح . تذكّره فأحس برفّة خجل خفيفة في قلبه وبشروع ابتسامة على شفتيه . ان رفيقيه المستجدّين ليستحيان

ان تدور في رأسيها مثل هذه الخواطر عن المرايا والاشباح ومخلوقات الليل .
ولكن :

ـ من هؤلاء ؟ من هؤلاء ؟

هذه هي المسألة. لم يبق أمامه الا أن يقوم بحركة ما ليتبين حقيقة الموقف. وأخذت تتجلى عن عينه الغشاوة الآلية التي اعتاد عليها منذ سنوات : أية حركة أمامك .. تربُّص ، توجُّس ، استعداد ، إفلات ، وإلا .. اشتباك تغطية على الانسحاب .. حدّق ثانية . ليس من بصيص نور . لا خيط ، لا نسمة مضيئة . لم يكن أمامه سوى حدود مبهمة لكتلة غير بعيدة يقبع هو ومجموعته وظلها الشبحي على محيطها ، ولا بد أن هذه الكتلة هي التل الذي تقوم المستعمرة على طرفه الآخر . أما ما عدا ذلك فكان امتداداً ليلياً غاشماً لانهائياً يبتلع الكون وكل شيء من عقول الناس حتى تضاريس الأرض، ولكنه لا يبتلع أي سؤال بل يولّد سؤالاً جديداً بل اسئلة من كل رفة خاطرة او توهم هدف يتحرك .

ـ هل افتح النـار ؟ النار ؟ .. من هؤلاء ؟ .. اشباح .. من نحن ؟ أشباح .. من نحن .. من نحن ... ماذا نكون ؟

مع تزايد انسكاب المطر تزايدت الاسئلة، وتزايدت الإيقاعات، ولكن المطر حنون وللمطر روائح خاصة تختلف حسب أبعاد المكان وطبيعته . الثلاثة معاً شرعوا يتنشقون روائح المطر ، وكانت الروائح مشوبة برطوبة محببة تبعث في نفوسهم احساساً مبدئياً بالارتياح وتدهن اعصابهم برهم مخفف للتوتر .. أخذت راداراتهم تنقل هذا الشعور المبدئي فيما بينهم وخيل اليهم في وقت واحـد أنهم يتنشقون ريحاً غير عدوة ، وما كادوا يدخلون في مشروع ارتياح نفسي وتخفيف

من وطأة الأيدي المتشنجة على الزنادات وكعوب البنادق المغروسة في الأكتاف حتى برقت السماء بشكل مفاجيء وصاعق لم يتح للقائد أن يلتقط من دفق خواطره سوى هبة واحدة مشبعة بالدهش :

ـ الى هنا وصل بك الحد يا سماء .

ولكنها لم تكن السماء هذه المرة . كان نوراً كشافاً ضخماً في اعلى التل يدور بسرعة ألكترونية فائقة ويكشف صخوراً وشجيرات ووادياً وأراضي بعيدة .

ـ من هؤلاء ؟ من ؟

وبعصبية مختنقة . لقد اختفوا تماماً خلف صخورهم كأن بدأ خرافيـــة مسحت بهم الأرض تماماً كما اختفـــى مع مجموعته . ولكن النور ما زال مسلطاً والأسلحة يجب أن توجه في وقت واحد إلى الهدف الأول المختفي على استقامة النظر مع انحراف بسيط الى اليسار ، وكذلك الى الهدف الآخر المنير في حدود ٤٥ درجة الى يمين الهدف الأول .

ـ ما العمل . لامجال للتردد . واللغم . ـ المحافظة عليه بأي ثمن .

لأول مرة فهم (أبوعمار) مامعنى أن الانسان ليس سيّد نفسه دائماً . خطرت له الفكرة كالتماعة البرق ، حتى هنا يكون الاختيار شكلياً لانه في الحقيقة أقسى من أي اجبار . عليه أن يختار بسرعة . أن يتحرك قبل أن تفوت اللحظة المناسبة .

ومرة أخرى حسم الموقف شيء خارج عنه ... انفجار هائل دوى في الطرف الآخر من التل ، تبعته انفجارات متضاربة السرعة والصدى عرف من اتجاهها وأسلوب تتابعها انفجارات مستودع الذخيرة في المستعمرة ، وبشكل

تدريجي ولكنه سريع ابتدأ العالم يضج بأصوات متواصلة من الرصاص والقذائف في كل اتجاه .

— الآن طاب الاختيار .

بفرح طفولي وتصميم رجولي أعطى (أبوعمار) أمره الأول والأخير في تلك الليلة .

— عودا باللغم الى القاعدة . سأبقى هنا لأحمي انسحابكم . . وانسحابهم أيضاً . انهم أصدقاء من تنظيم آخر أنجزوا المهمة .

وانطلق المدفع الرشاش من فوق الصخرة باتجاه الكشاف الضخم ، وتحرك الفدائيان في طريق العودة حبواً على الرجلين واليدين ، وفي الوقت نفسه كانت المجموعة الأخرى تتحرك بالاتجاه نفسه .

لم يسمع الفدائيان من رئيس مجموعتهما كلمة أخرى بعد ذلك . ولكنهما أخذا يرويان لرفاق السلاح تفصيلات المرآة الليلة العجيبة ، ويضيفان ، دون سابق اتفاق ، أن قائدهما كان يتمتم حين غادراه .

— لولا تواقت الظروف لأطلقنا النار بعضنا على بعض . مرآة الليل . . . كانت . . . هي الحقيقة . . . لولاهم . . . هناك . . . يدركون .

تامان[1]

الكاتب الروسي: **لرمنتوف**

ترجمة: **هشام الدجاني**

تامان: اقبح المدن الروسية المطلة على البحر الاسود قاطبة. لقد كدت اموت فيها من الجوع.. لا بل اكثر من ذلك.. لقد كدت اموت فيها غرقاً.

وصلتها في موهن من الليل عندما اوقف السائق عربته الهرمة عند المنعطف بالقرب من مدخل احد البيوت الحجرية. صحا الحارس القوقازي، وهو احد سكان البلدة، من نومه، وقد سمع اصوات العجلات، وصاح بصوت خشن فيه وحشة:

(١) «تامان» بلدة صغيرة على شاطىء البحر الاسود، اضطر الضابط بيتشورين ان يمكث فيها بضعه ايام جرت خلالها مغامرات واحداث مثيرة. – المترجم –

— « من القادم » ؟

وخرج إلي رجلان احدهما برتبة رقيب والآخر برتبة عريف . واوضحت لها انني ضابط ، وانني جئت الى منطقة خدمتي، وسألتهما البحث عن شقة لي . وقادنا الرقيب في المدينة التي لم نجد فيها كوخاً واحداً خالياً . كان البرد شديداً ، وقد مرت عليّ ثلاثة أيام بدون أن انام . وفقدت اعصابي وبدأت اسخط على القوم ، وصحت قائلاً : « خذني الى اي مكان تشاء ايها اللص ولو الى الشيطان ، حسبي ان تأخذني الى مكان آوي اليه ! » . فأجابني الرقيب وهو يحك مؤخرة رأسه: « ما تزال ثمة شقة اخرى، ولكنها لاتناسب مقامك ، فالمكان هناك غير نظيف ! » .

وبدون أن أدرك المغزى الدقيق لمعنى كلمته الاخيرة ، امرته ان يقودني اليها . وبعد جولة طويلة بين الممرات القذرة ، حيث لم أجد سوى جدران آيلة للسقوط ، وصلنا الى كوخ حقير صغير عند شاطىء البحر .

بدا البدر ساطعاً ينير ماحوله، وقد انعكست أشعته على سطح وجدران كوخي البيضاء ، وفي الحوش المحاط بالحجارة، كان يقع كوخ آخر أصغر وأحقر من الأول ، عند حافة الوادي المطل على البحر . وعند اقدام الوادي كانت تتلألأ الامواج الداكنة الهادرة أبداً . والقمر يرنو الى الكون بسكون .

واستطعت أن اميز على البعد تحت أشعة القمر قاربين بعيدين عن الشاطىء تشبه اشرعتها السوداء عش عنكبوت قد ارتسم على صفحة السماء الشاحبة . قلت اخاطب نفسي : «ان الميناء مزدحم بالقوارب. غداً سوف انطلق الى جلندجيك» .

وأمرت الجندي القوقازي الذي كان يقوم على خدمتي ان يفتح الحقيبة ويصرف السائق . ورحت انادي ربة الدار ، ولكنها لم تجب . وعدت أطرق الباب فكان الصمت جوابي . واخيراً خرج غلام صغير في الرابعة عشرة من عمره ،

فسألته :

– « اين صاحب الدار ؟ »

– « ليس هنا »

– « كيف ؟ الا يوجد احد ؟ »

– « أبداً ! »

– « وصاحبة الدار ؟ »

– « ذهبت الى البلدة »

– « من الذي سيفتح لي الباب إذن ؟ » . قلت ذلك وضربت الباب بقدمي . وفتح البـــاب بدون مقاومة ، وهبت من الكوخ رطوبة عفنة . واشعلت عود ثقاب ، ورفعته الى انف الغلام ، فالتمعت امامي عينان بيضاوان . . كان الغلام ضريراً . كان يقف امامي بدون حراك ، فرحت اتفحص ملامح وجهه . ولكن ماذا يستطيع المرء ان يقرأ على وجه من لم يؤت نعمة الأبصار ؟ . . ونظرت اليه طويلا بأسى لا شعوري . وفجـــأة انفرجت شفتاه الدقيقتان عن ابتسامة تركت في نفسي ، لسبب لا أعرفه ، شعوراً سيئاً . ودارت برأسي فكرة : ان هذا الأعمى ليس ضريراً الى هذا الحد الذي يتظاهر به . وعبثاً حاولت ان اقنع نفسي بأن بياض عينيه لايمكن ان يكون تظاهراً . اذا كان تظاهراً فلماذا ؟ ولأي غرض ؟ كلا . انني اميل احياناً الى التحامل والاتهام .

واخيراً سألته :

– « هل أنت ابن صاحب الدار ؟ »

– « لا » .

– « من انت اذن ؟ » .

- « يتيم بائس » .

- « هل لصاحبة الدار اولاد ؟ » .

- « لا . كان عندها ابنة ، ولكنها غرقت في البحر مع رجل تاتاري » .

- « مع أي تاتاري ؟ » .

- « لا يعرفه سوى الشيطان ! انه نوتي من القوم من مدينة كيرتش[1] » .

ودخلت الكوخ . كان اثاثه يتكون من اريكتين ومنضدة ، وصندوق كبير يقع جانب المدفأة . ومن خلال زجاج الكوخ المكسور كانت تنفذ ريح البحر . واخرجت من حقيبتي شمعة واشعلتها ، وبدأت أرتب اغراضي . ووضعت سيفي وبندقيتي في زاوية المكان ووضعت مسدساتي على الطاولة ، كما راح خادمي يضع حاجاته هو الآخر ..

ولم تكد تمضي دقائق عشر حتى راح الخادم يغط في نوم عميق ، أما أنا فلم استطع الى النوم سبيلا . فقد كانت تتراءى امامي في الظلام صورة الغلام بعينيه البيضاوين .

ومرت ساعة على هذه الحال . كان البدر يطل بنوره من خلال النافذة ، واشعته تداعب مروج الحقل المحيط بالكوخ . وفجأة ظهر شبح في الحقل لاح تحت نور القمر . ونهضت من فراشي ، واخذت احملق في النافذة . مر الشبح ثانية يركض ، ثم اختفى في مكان لا يعلمه الا الله . ولم استطع تمييزه ، فقد انحدر مسرعاً في المنحدر العمودي المؤدي الى الشاطىء ، اذ لم يكن ثمة مكان يختفي فيه . ونهضت وارتديت معطفي ، وتمنطقت خنجري وخرجت من الكوخ على رؤوس اصابعي لأجد امامي الصبي الأعمى .

---

(1) مدينة على شاطىء البحر الاسود .

واختبأت خلف السور . أما هو فقد مر بجانبي بخطوة واثقة يشوبها شيء من الحذر ، وقد حمل تحت إبطه لفافة لم استبنها . ثم اخذ ينحدر في الممر الضيق الوعر متجهاً نحو الميناء . وتابعته الى حيث سار حتى لا يغيب عن ناظري .

في تلك الاثناء بدأ القمر يحتجب خلف الغيوم ، كما اخذ الضباب ينتشر فوق البحر ، حتى بدا من الصعوبة بمكان تلمس نور قارب قريب . وبينما كنت اشق طريقي بصعوبة في ذلك المنحدر ، لاحت مني نظرة الى الغـــلام الضرير فوجدته قد توقف عن سيره ثم انعطف منحدراً نحو اليمين . وأخذ يسير على قرب يسير من الماء حتى خيّل اليّ ان الموج سوف يمسك به ويحمله بعيدا . . ولكن هذه لم تكن لعبته الاولى ، فقد تجلى لي تحكمه وثقته عندما اخذ يقفز من حجر الى حجر في تجاوزه الاخدود . وتوقف أخيراً عن السير كما لو كان يصيخ السمع الى أمر ما ، ثم جلس على الأرض ووضع لفافته الى جانبه . واخذت اراقب حركاته ، وأنا مختبيء خلف صخرة بارزة عند الشاطيء . ومرت بضع دقائق . فاذا بشبح أبيض يظهر من الجهة الاخرى ، ويقترب رويداً من الاعمى ثم يجلس بجانبه . واخذت الريح تنقل الي حديثهما بين حين وآخر .

قال صوت نسائي : « ماذا ايهـــا الاعمى ؟ ان الريح قوية ويانكو لن يأتي » .

فرد عليها قائلاً : « ان يانكو لا يخاف الريح » .

فاعترضه الصوت النسائي تشوبه رنة من حزن : « ان الضبـــاب يزداد كثافة » .

وجاءها الجواب « الضباب خير للتسلل بين قوارب الدورية » .

ــ « واذا فقد طريقه ؟ » .

ـ وعندئذ تذهبين يوم الاحد الى الكنيسة بدون ملقط الشعر » .

واعقب ذلك فترة صمت . وحرت في تفسير امر واحد، لقد كان الاعمى يتحدث معي باللغة الاوكرانية ، والان اذا به يتحدث الروسية بطلاقة .

قال الاعمى ثانية وهو يضرب كفيه : « اترين .. انني على حق . ان يانكو لايخاف البحر ولا الرياح ولا الضباب ولا قوارب خفر السواحل . اصغي .. انه ليس صوت المياه . فأنا لا أُخدع . انه صوت مجدافه الطويلين » .

قفزت المرأة على قدميها واخذت تنظر الى البعيد وقد بان عليها الاضطراب . ثم قالت : « انك تهذي ايها الاعمى ، انني لا ارى شيئاً » .

واعترف بانني بقدر ماحاولت ان اميز على البعد شيئاً يشبه القارب لم استطع ان اميزه ، وباءت جهودي بالفشل . ومضت دقائق عشر على هذه الحال . وفجأة ولدت جبال الامواج نقطة سوداء تكبر تارة وتتضاءل اخرى . ثم تجلت عن قارب يعتلي ذرى الموج ببطء ثم ينزلق عنها سراعاً وهو يقترب من الشاطىء . لابد انه نوتي كبير من يجازف في مثل هذه الليلة بعبور المضيق مسافة عشرين ميلا ! ولا بد ان يكون السبب الذي يدعوه لهذا عظيما ايضاً ! وبينا انا افكر في هذا ، كنت انظر الى القارب الشاحب وقلبي يخفق بشدة رغما عني .. كان القارب يهوي بين ربوتين من الموج ثم يعود الى الارتفاع من وهدته وسط رشاش الزبد ، وقد انتفض مجدافاه بسرعة كجناحي طائر . واعتقدت فجأة ان القارب سيصطدم بالشاطىء بعنف ويتناثر حطاما . لكنه انعطف جانبا دون ان يصاب باذى .

وخرج منه رجل متوسط القامة يرتدي قبعة تاتارية . واشار بيده ، فهرع الثلاثة يخرجون من القارب شيئاً . كان الحمل عظيما حقا ، حتى انني لم اتصور

حتى الآن كيف لم يغرق القارب ، واخذ كلٌ لفافته على كتفه ، وانطلقوا جميعاً على طول الشاطىء . وسرعان ماغابوا عن نظري . وكان عليَّ ان اعود الى البيت . ولكنني اعترف بأن كل هذه الاشياء الغريبة قد اثارت اهتمامي ، حتى انني انتظرت الصباح بفارغ الصبر .

صحا خادمي القوقازي مندهشاً ، وقد رآني مرتدياً ثيابي كاملة . غير اني لم انكر له سبب ذلك . وسرحت ببصري بعض الوقت النظر من النافذة .. اتطلع الى السماء الزرقاء التي شابتها قطع السحاب .. والى شاطىء القرم البعيد الذي يمتد كروض من بنفسج ، وينتهي بصخرة تتلألأ فوق قمتها قبة لامعة . ثم انطلقت الى قلعة فانا جوريا لاستفسر قائدها عن ساعة رحيلي الى جلند جيك .

وكم كان أسفي شديداً عندما لم يستطع القائد ان يخبرني بشيء . فقد كانت جميع السفن الراسية في الميناء سفناً تجارية او خاصة ، ولم تكن قد بدأت بشحن بضاعتها بعد . وقال لي هذه الكلمات : « ربما جاءت بعد ثلاثة او اربعة ايام سفينة البريد ، عندئذ سوف نرى » . وعدت الى البيت كاسف البال حانقاً . وعند الباب قابلني خادمي . قال وقد رسم الرعب على وجهه سطوراً :

— « ليس الامر على مايرام ياسيدي » .

— « اجل ايها الاخ . الله يعلم متى نرحل عن هذا المكان ! »

وهنا ازداد خادمي اضطراباً ، ومال علي وهو يقول هامساً :

— ان هذا المكان غير نظيف ! لقد قابلت اليوم عريفاً من هذه المنطقة ، وهو احد معارفي ، وقد كان يعمل في الماضي في هذه المنطقة ، وعندما اخبرته اننا نزلنا قال لي : « ان هذا المكان غير نظيف ايها الاخ ، واهله قوم اشرار » . حقاً ! ماهذا الاعمى ! انه يذهب وحيداً في كل مكان .. الى السوق لشراء

الخبز او لجلب الماء .. اتراهم اعتادوا على هذا هنا !؟ .

– حقا ماهذا ؟! هل ظهرت صاحبة الدار على الاقل ؟

– اليوم جاءت امرأة عجوز اثناء غيابي ومعها ابنتها .

– أيه ابنة ؟! اهي ليس لها بنات .

– الله يعلم من هي اذا لم تكن ابنتها . المهم ان السيدة تجلس الآن في كوخها .

ودخلت الكوخ . كان الموقد يتوهج جمراً .. وكان يطهى فوقه طعامنا المتواضع . وجلست الى العجوز احادثها ، لكنها كانت تجيب على اسئلتي جميعاً بانها طرشاء لاتسمع . وحرت ماذا افعل معها . والتفت الى الاعمى الذي كان جالساً امام الموقد يضع غصن شجرة في النار ، وقلت له وقد امسكته من اذنه : ايه ايها الاعمى الخبيث ! قل لي اين ذهبت بلفافتك بالليل – آه ؟ . وفجأة اخذ الغلام الضرير يجهش بالبكاء ، ويصيح في ثورة : اين ذهبت ؟! انا لم اذهب الى اي مكان – .. بلفافة ؟! اية لفافة ؟ . اخذت العجوز تتمتم وقد سمعت هذه المرة : حتى هذا البائس لايسلم من كلام الناس .. ماذا تريد منه ؟ ماذا فعل لك؟ وازعجني هذا الامر ايما ازعاج ، وخرجت ، وقد عقدت العزم على ان اكتشف مفتاح هذا اللغز .

جلست عند السياج على حجر ، وقد تدثرت بدثار صوفي ، ورحت احدق النظر في البعيد .. وأمامي يمتد البحر الذي اهاجته عاصفة الليل ، بهديره الرتيب الذي يشبه همهمة مدينة غارقة في نومها .. وسرحت بخيالي الى ذكرى السنوات الاخيرة .. الى الشمال . الى عاصمتنا الباردة . فنسيت نفسي وقد انسقت معتبار الذكريات .. ومرت ساعة او يزيد وانا على هذه الحال . وفجأة طرق مسامعي

صوت يشبه الغناء .نعم لقد كان صوتاً نسائياً رقيقاً .ولكن من اين مصدر هذا الصوت ؟ . . واصخت السمع ـ كان اللحن غريباً . . فهو كئيب حزين تارة ، سريع ينبض بالحياة اخرى. وتلفت حولي فلم اجد احداً . . واصغيت من جديد . . كأن الاصوات آتية من السماء . ورفعت بصري ـ فوجدت على سطح كوخي فتاة ترتدي ثوباً حريرياً ، ذات ضفائر مبعثرة . . لا شك انها حورية من حوريات البحر ! كانت تطيل النظر الى البعيد ، وقد وضعت راحتها فوق عينيها تحجب الشمس عنها . . تضحك تارة وهي تحاكي نفسها ، وتارة تغني اغنيتها من جديد . وما زلت أذكر كل كلمة من كلمات هذه الاغنية :

في البحر اللازوردي

تسري القوارب كلها . . .

بأشرعتها البيضاء . . .

بين تلك القوارب

يسري قاربي . . .

يسري قاربي بمجدافيه

انه يحمل اشياء ثمينة

يقودها في جنح الظلام

برأسه العنيد . . .

* * *

وخيل الي انني سمعت هذا الصوت في تلك الليلة . . واطرقت برهة افكر ، ورفعت رأسي ثانية الى حيث وقفت الفتاة ، ولكنها كانت قد اختفت. وعلى حين غرة مرت كالسهم بالقرب مني، وقد شبكت ما بين ذراعيها ، وهرعت

الى العجوز .. وسرعان ما تعالى صوت العجوز الغاضب ، فقد بدا ان خلافاً قد شجر بينهما . ومرة أخرى رأيت حوريتي تختال مسرعة . وعندما اقتربت مني توقفت عن المسير ، ونظرت الي بامعان كما لو ان حضوري قد ادهشها ، ثم تلفتت بدون حذر وسارت باتجاه الميناء .

لكن الموقف لم ينته عند هذا الحد ، فقد أخذت تحوم حول شقتي طوال النهار وهي تستمر في غنائها وعبثها دون توقف . انها مخلوقة عجيبة حقاً ! لم يكن على وجهها أية علامة من علامات الغباوة ، بل على العكس كانت تشيع في نظراتها علائم الذكاء الحاد والحيوية الدافقة . كانت عيناها تنظر إلي وكأنها تتوقع مني سؤالاً . ولكنني لا أكاد ابدأ بالكلام مرة حتى تولي هاربة وهي تضحك بخبث . لم أر أبداً في حياتي مثل هذه المرأة . لم تكن شديدة الجمال ، لكن شغفي بها قد جعلها في نظري . كانت مغنيتي في الثامنة عشرة من عمرها ، كانت مرونة جسدها العجيبة ، وإمالة رأسها الخاصة ، وشعرها الطويل الذي ينسدل كمروج الذهب على جيدها و كتفيها ، وانفها المستقيم - كل هذه بدت لي ينابيع للسحر تتفجر أبداً . وبالرغم من أنني كنت أشعر في نظراتها الشاردة بشيء من الوحشة كأنها تخفي وراءها أمراً ... وبالرغم من أن ضحكتها يتجلى فيها سر من غموض ، لكن سحر أنفها المستقيم وقوة أسره قد أنستني نفسي حتى تصورت انني وجدت « مينوناً » . كان بيننا أكثر من لقاء ... ذلك الانتقال السريع من القلق المجنون الى الراحة والخلود .. تلك الاحاديث الفياضة ، ذاك العبث اللاهي ، تلك الاغنيات الغريبة ...

وفي المساء اوقفتها عند الباب لأتحدث معها .

قلت ابتدرها بسؤال : قولي لي ايتها الحسناء ماذا فعلت اليوم فوق السطح ؟

نظرت الى الجهة التي تأتي منها الريح وصمتت ولم تحر جواباً . قلت لها :

ـ « لماذا تهمك الريح ؟ » قالت :

ـ « من حيث تأتي الريح تأتي السعادة » .

ـ « ماذا ! وهل تسمين أغنيتك سعادة ؟ »

ـ « حيث الغناء توجد السعادة » .

ـ « .. فاذا كنت تغنين احزانك ؟ » .

ـ « وماذا يهم ؟ حيث لايوجد ماهو حسن ، يوجـــد ماهو سيء ، وما الطريق بينهما ببعيد ... » .

ـ « من علمك هذه الأغنية ؟ » .

ـ « لم يعلمنيها أحد . فكرت ثم غنيت . من سمعني فله أغني ، ومن لا أريده أن يسمعني فهو لايفهمني » .

ـ « ماذا يدعونك بمخيتي ؟ » .

ـ « من عمدني ، هو يعرفني » .

ـ « ومن عمدك ؟ » .

ـ « ولماذا أعرف ؟ » .

ـ « يالك من فتاة كتوم ! ومع هذا فانا أعرف عنك بعض الأشياء (ولم يبد على وجهها اي تغيير ، ولم ترتعش لها شفة ، كأن الحديث لايعنيها في شيء) . لقد عرفت انك كنت تمشين ليلة الامس على الشاطىء » .

وهنا اخذت أنقل اليها كل مارأيت ، وقد اعتراني اهتمام بالغ . كان قصدي من وراء ذلك أن أغيظها ، لكنها ضحكت بأعلى صوتها وقالت :

— « لقد رأيت الكثير ، ولكنك لاتعرف الاالقليل ، وماتعرفه اقفل عليه بمفتاحك ».

— « واذا فكرت مثلاً في ان انقل هذا الكلام الى القائد البحري؟ » .

واصطنعت عند هذه العبارة تعبير الجد والصرامة . لكنها ركضت فجأة واختفت كالطير الصغير خلف الاشجار . ويبدو ان كلماتي الاخيرة لم تكن في مكانها . لعلي لم اتبين في ذلك الحين اهميتها ، ولكن جـــاء وقت ندمت فيه على قولها .

لم تكد الشمس تميل الى المغيب حتى أمرت خادمي ان يغلي لي الشاي ، وأضأت الشمعة ، وجلست عند الطاولة ادخن غليوني . وما كدت انهي كوب الشاي الثاني حتى سمعت فجأة صرير الباب وحفيف ثوب ناعم وصوت خطوات خلفي . واذا بها هي .. حوريتي ! وجلست قبالتي بهدوء وصمت وقد سلطت علي عينيها . ولسبب لاادريه بدت لي نظرتها رقيقة ساحرة .. ولاح في عينيها انتظار سؤال .. لكنني سكت ، وشعور من القلق الغامض ينتابني .. كان وجههـــا يكسوه شحوب خافت ينبئ عن اضطراب يجيش في اعماقها ، ويداها تطرقان على الطاولة بدون هدف . ولاحظت فيها اختلاجاً خفيفاً . اما صدرها فقد أخذ يعلو تارة ، وتارة يبدو وكأنها قد حبست انفاسها .

وبدأت هذه الكوميديا تثير قلقي ، وكنت على وشك ان اقطع حبل هذا الصمت بطريقة ادبية ، كأن اقترح عليها كوباً من الشاي ، لولا انها قفزت فجأة من مجلسها ، واحاطت رقبتي بذراعيها ، وطبعت على شفتي قبلة عذبة حارة . وشعرت بالظلام في عينيّ ، وبالدنيا تدور بي ، فأجلستها في حضني ، لكنهـا انفلتت كالافعى من بين ذراعي ، وهمست في اذني : « اليوم ليلا عندما ينـــام

الجميع اخرج الى الشاطىء » ، ثم انطلقت كالسهم خارجة من الغرفة . وقلبت في اندفاعها ابريق الشاي والشمعة الواقفة على الارض . فصاح خادمي خلفها : يالك من فتاة كالشيطان ! » . عندئذ فقط افقت الى نفسي .

وبعد ساعتين ، عندماهدأ كل شيء في الميناء ، ايقظت خادمي وقلت له: اذا اطلقت عياراً من مسدسي فأهرع الى الشاطىء » . فرك الخادم عينيه بصورة آلية واجابني : « امرك ياسيدي » . وعلقت المسدس على جنبي ، وخرجت .

كانت الفتاة تنتظرني عند حافة المنحدر ، وقد ارتدت ملابس خفيفة ، واحاطت جسدها البض بوشاح قصير . قالت وهي تمسك بيدي : «تعال معي» . ورحنا ننحدر معاً . ولم ادر كيف لم تتكسر رقبتي ونحن ننحدر في هذا الوادي . وانعطفنا الى اليمين ، ومررنا في نفس الطريق الذي تابعت فيه الغلام الأعمى من قبل .

لم يكن القمر قد طلع بعد . ولم يكن في السماء سوى نجمتين ضئيلتين تبدوان كمنارتي انقاذ تضيئان بلون أزرق قاتم .. والامواج الهائلة تتدافع الواحدة تلو الاخرى لترفع القارب الراسي عند الشاطىء .

قالت مرافقتي : « هيا نركب القارب » . وترددت في ذلك ؛ فأنا لم اكن يوماً ماهراً في المداعبات العاطفية في البحر ، ولكن لم يكن ثمة وقت للتراجع . وقفزت الى القارب ، وقفزت خلفي . ولم اعد اذكر سوى اننا وجدنا أنفسنا في البحر .

قلت لها غاضباً : « مامعنى هذا ؟ » ، فقالت وهي تجلسني على المقعد وتحيط جسدي بذراعيها : « هذا يعني .. هذا يعني انني احبك .. » ، ومالت عليّ ، وشعرت بعبيرها الزكي يلفح وجهي . وفجأة سقط شيء في الماء محدثا صوتا !

وامسكت بنطاقي .. فاذا بمسدسي قد اختفى . وتوقعت عندئذ امراً رهيباً ، وصعد الدم الى رأسي ، وتلفت حولي فاذا نحن بعيدان عن الشاطىء ، ولم اكن أستطيع العوم !. واردت أن ابعدها عني ، لكنها تعلقت بثيابي كالقطة . وفجأة اصابتني ضربة قوية كادت تودي بي في البحر . واخذ القارب يتأرجح ، ولكنني اعتدلت في وضعي ، ونشب بيننا صراع يائس . كان المرض قد هدّ قواي .. وسرعان ما فطنت الى انه من الأحسن أن آخذ عدوي باللين . وصحت فيها وانا امسك ذراعيها الصغيرتين بشدة « ماذا تريدين ؟ » . وانعصرت اصابعها بين يدي ، لكنها لم تصرخ ، فقد تحملت طبيعة الافعى فيها هذا الالم . واجابتني : « لقد رأيت وسوف تخبر » . وبقوة خارقة دفعتني على ظهر القارب ، وتدلى كلانا من القارب . ولامس شعرها الماء .. وكانت لحظة حاسمة . واستندت على ركبتي في قاع القارب وامسكت ضفيرتها باحدى يديّ ، وامسكتها من خناقها بيدي الاخرى ، وقد تزقت ثيابي من قوة الجذب ، وبلمح البصر قذفت بها في الموج .

كان الظلام دامسا ... غير انني رأيت رأسها يطفو على سطح الماء مرتين ـ ثم اختفت .. ولم أعد أرى شيئاً . وفي قعر القارب وجدت نصف مجداف عتيق . ورحت اكافح حتى استطعت ان اصل اخيراً الى الميناء . وفي طريقي الى الكوخ كنت انظر بدون رغبة الى الناحية التي وقف عندها الغلام الاعمى مرة ينتظر قادم الليل .

كان القمر قد تصدر في السماء ، وانتشر ضياؤه في كل مكان . وفجأة تراءى لي أن شخصاً يلبس ثوباً ابيض يجلس عند الشاطىء . وتسللت مدفوعاً بفضولي ، واضطجعت على العشب عند الهوة المطلة على الشاطىء . وأملت رأسي قليلا ،

واستطعت أن أرى بوضوح من مكاني كل ما يجري في الاسفل . ولم ادهش كثيراً عندما رأيت حوريتي ثانية . كانت تنزع عشب البحر عن شعرها الطويل ، وقد كشف ثوبها المبلل عن جسدها الغض وصدرها الشامخ . وسرعان ماظهر على البعد قارب .. قارب يقترب سريعاً . وخرج منه ثانية رجل يرتدي قبعة تاتارية ، لكنه متنكر في ثوب قوقازي ، وقد حمل خلف نطاقه الوردي سكيناً كبيرة . قالت الفتاة : « يانكو ! لقد ضاع كل شيء » . واستمر الحديث بينهما لكنه كان خافتاً ، فلم أستطع ان التقط منه شيئاً . واخيراً قال يانكو وهو يرفع صوته : « وابن الأعمى ؟ » . فكان الجواب : « لقد ارسلته » . ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى ظهر الاعمى وقد حمل على ظهره حقيبة وضعها في القارب .

قال يانكو : « اسمع ايها الاعمى ! هل تعرف شواطىء المكان ؟ ثمة بضائع كثيرة .. قل لـ (وذكر اسماً لم استبنه) انني لم أعد له خادماً . ان الاعمال تسير بشكل سيء ، وهو لن يراني بعد اليوم . لقد صار الوقت عصيباً ، وسأذهب للبحث عن عمل في مكان آخر . لكنه لن يجد رجلا جريئاً مثلي . قل له أيضاً : انه اذا كان يدفع اجراً اكبر لاعمالي ، فان يانكو لن يتركه . ان دربي كل مكان تهب منه الريح ، ويزأر فيه البحر ! » .

وبعد فترة صمت قصيرة تابع يانكو كلامه قائلا :

« انها ستسافر معي ، اذ يجب الا تبقى هنا . اما العجوز فقل لها إنه كما يقال ، قد حان وقت موتها . انها لن ترانا بعد اليوم » .

قال الأعمى بصوت باك : « وانا ؟ »

فأجابه : « وما حاجتي اليك ؟ »

وفي تلك الاثناء قفزت حوريتي الى القارب ، واشارت الى رفيقها بيدها ،

اما هو فقد دس شيئاً بيد الغلام وهو يقول : « اشتر به لنفسك بعض الكعك » فقال الغلام « اهذا فقط ؟ » . « حسناً اليك هذا ايضاً » . وسمعت صوت قطعة النقود وهي ترتطم بالحجر . لكن الاعمى لم يرفعها من مكانها . وجلس يانكو في القارب ، وهبت الريح على الشاطىء ، فرفع كلاهما الشراع الأبيض وسط الامواج القاتمة ، والغلام ما يزال جالساً عند الشاطىء . وفجأة سمعت صوتاً يشبه النحيب . كان صوت الغلام الاعمى يبكي بحرقة وألم . . وشعرت بالرثاء لحاله . لم كتب علي القدر أن يقحمني وسط هذه المجموعة الآمنة من المهربين لأعكر صفو عيشهم الهادىء ؟ فكنت اشبه شيء بحجر قذف في نبع صاف رقراق ، أو بحجر كاد يغوص يوماً في القاع !

وعـــدت الى البيت . وفي طريقي تعثرت بالشمعة المشتعلة في الاناء الخشبي . واحدث تعثري صوتاً ، لكن خادمي ظل يغط في نوم لذيذ ، وقد امسك البندقية بكلتا يديه . وتركته يغط في نومه ، واخذت الشمعة ، ومررت الى الكوخ . ياالهي ! لقد اختفت حقيبتي وعلبة سجائري ذات الغطاء الفضي ، وخنجري الذي اهدانيه القائد . يا الهي ! لقد اختفت جميعاً . وهنا ادركت اية اشياء سرقها ذلك الأعمى الملعون . وايقظت خادمي بدفعة غليظة وصحت فيه معنفاً . ولكن لم يكن ثمة ما نفعله ، فقد ضاع كل شيء . ألم يكن من السخف ان اشكو للقيادة ان غلاماً صغيراً قد سرقني . وان فتاة في السابعة عشرة من عمرها كادت تغرقني ؟

ولكن الحمد لله ! لقد لاح أخيراً بصيص امل . وتركت تامان غير آسف عليها . ولم أعرف منذ ذلك الحين ماذا جرى للعجوز او الغلام المسكين . اي شيء بقي لي انا الضابط الغريب سوى السعادة والحزن .

الشعر

الكتابة على الطين (١)

عبد الوهاب البياتي

تأكلُ الحرّةُ ثدييها إذا جاعت وفي أرض الملوك الفقراء
زهرةُ الدفلى على طرف رداء
تتعرى في حياء
وأنا أكتب فوق الطين ما قال المغني للمساء
وأُعري الكلمات
وتعاويذ البغايا الكاهنات
وأرى نهر دم يصبغ مرآة وجوه الملكات
ورحيل العربات
في سهوب الشرق ، والنار وصمت الكائنات
آه من عُري سماء الكلمات
تحتها أرقد قشاً ، مُومياء
صامتاً أنتظر البعث ألوف السنوات

(١) الكتابة على الطين : عمل شعري كبير ، يحمل هذا الجزء منه عنوان « النبوءة ».

حاملاً موتي معي ، جوّاب آفاق بلا زاد وماء
كلما غيّر مجراه الفرات
رقدتْ في قاعه روحي مع الصلصال والعشب : حصاة
آه من يجمع أشلائي التي بعثرها الكاهن في كل زمان ومكان
فأنا لوح من الطين وخيط من دخان
كتبوا فيه الرُّقى والصلوات
ومراثي مدن الشرق التي ماتت وأعياد الفصول
آه ماذا للمغني سأقول ؟
عندما تصهل تحت السور في الليل الخيول
ومجوس الزمن الآتي يدقون الطبول
ويعودون من المنفى الى المنفى فلول
عندما تصعد من عالمها السفلي للنور وتبكي عشتروت
في رداء الكهنوت
عندما يُنْفَخُ في الصور ولا يستيقظ الموتى ولا يلمع نور
ويصيح الديك في اطلال « أور » [1]
آه ماذا للمغني سأقول ؟
وأنا اجمع اشلائي التي بعثرها الكاهن في كل العصور
ونذوري والنذور .

---

(١) (أور) أقدم مدينة سومرية - بابلية يرجع تاريخ بنائها الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وكانت عاصمة بلاد سومر ، وقد ورد ذكرها في التوراة (أور الكلدانيين) وقد أصابها الدمار مرات عديدة على يد الغزاة ، فكتب فيها شعراء تلك العصور مراثي طويلة منها (مرثية تدمير أور) .

عثر في حفائرها على بعض ألواح ملحمة (كلكامش) وهي أقدم ملحمة شعرية في تاريخ آداب العالم القديم .

تقع خرائب أور بالقرب من مدينة الناصرية في جنوب العراق .

الكلمات المقاتلة

الى الأصدقاء .. وفد الأدباء السوفييت ..
ضيوف بردى .. ذكرى لقاء في دمشق ..

سليمان العيسى

قاتلتُم بالكلمه ..
بالحرفِ الأحمرِ .. بالعتمة
بلهاثِ الأرضِ المحروقه
بشبابٍ رفيقٍ ورفيقه
تذراه التحريرُ
لحُطامٍ مغيرٍ ..

قاتلتُم .. حتى انهار الليلُ
وتنفّس كالأملِ الأخضر
في أرجاءِ البلدِ الأخضرْ
فجرٌ معسولٌ
صبحٌ مَطلولٌ

بدمِ القتلى ، وندى المستقبلِ تبنُونه
بعنادِ الواثقِ تبنُونه
جسراً لكواكبَ مجهولة
كانت خطوات رؤى ، ومطارحَ حدسٍ مشلولة
كانت أحلامَ الشعراء
دنيا قافيةٍ خضراء
واستيقظَ ذاتَ صباحْ
قمرٌ وضّاحْ
يتلقّى من يدكم وردة
نجماً حلواً صار الفولاذْ
غنّى فوقَ القمرِ الفولاذْ
واحمرّتْ في صدرِ القمرِ الساجي وردة ..

. . .

أهلاً .. برفاقِ النورْ
بلدي يهتزُّ لومضةِ نورْ
يُعطي .. مذْ وُلدتْ كلمة
وأضاءتْ في شفةِ العتمة
يُعطي هذي الدنيا قلبَه
ويمدُّ لكلِ يدٍ تمتدُّ بنفحةِ إنسانٍ قلبَه

أهلاً .. والشامُ جريحْ

غدُنا العربيُّ جريحْ
ماضينا الفذُّ جريحْ
شرفُ الكلماتِ الحلوةِ والتاريخِ جريحْ

أهلاً .. وحداثقُنا غمّهْ
تتعثّرُ بالبسمةْ
تتعثّرُ بالضحكاتْ
لسوى المطعونِ بسكينِ الغدرِ الضحكاتْ

بالأمسِ ذئابُ البشريّهْ
عادوا بخيولِ النارْ
وعرفتم يوماً كيفَ تعودُ خيولُ النارْ (١)
وتباغتُ في الليلِ الدامسْ
تحميها كلُّ قوى الليلِ الدامسْ
أخوانِ .. الغادرُ والليلُ
أخوانِ .. الهجومُ والليلُ

أهلاً .. والشامُ ربيعْ
يتنفّسُ بالدمِ والصمتِ
باليأسِ ، بزحمةِ الكبْتِ
لابدَّ — وأجزمُ — أنْ يمتدَّ على هضباتِ القدسِ ربيعْ

(١) إشارة الى الغزو النازي الذي تجدد على أرضنا .

وعلى "قسيُون" ، على سيناء ، على الأهرام ربيع
يحو بخُطاهُ الأزليّة
بخُطاً لاتسحقها ضربه
أنى شمختَ ، وزهتَ ، وتجبّرت القضبه
بخُطاً يعبقنَ بأنفاس الصحراء البكرِ العربيّة
بملاحم كانت تكتبُها أبداً صحرائي العربيه
يمحو أثر الغزو الوقح
ويقولُ لأرض النور ، لأرض الحب :
على الدنيا انفتحي !

في غاب أخضر ، نام على همسات قناة (١)
أعطى « بوشكين »(٢) القيثاره
وأعار « مايا كوفسكي »(٣) النار ينقي فيها مزماره
في غاب تشربه غابات
بجوار العاصمة الضخمه
والنسمة بيت من أبيات معلّقة الغزل النسمه
كانت لي أغنية يوماً ، وصلاة
في الغاب الأخضر نام على همسات قناة

---

(١) ذكرى نزهة قام بها الشاعر في ضواحي موسكو .
(٢) بوشكين : شاعر روسيا الأكبر .
(٣) مايا كوفسكي : شاعر الثورة ، مات في ريعان الشباب .

وغداً .. سيظلُّ على بَرَدى
وَتَرٌ من حَنْجَرةٍ ، وَصدى
وَتَرٌ منكم يسقي الذكرى
يسقي عَتَماتِ الجرحِ ، عِنادَ الجرحِ ، يذكّرنا الثأرا
ثأرَ الكلماتِ المطعونَهْ
ميلادَ الأرضِ المطعونَهْ
وسَتَحتشِمُ يوماً في طعنَهْ
وغسلتم بالنار المحنه
ما أروعَ مَلْحمةَ الكلماتْ !
باليأسِ تقاتلُ ، بالعَتَماتْ

ما أروعَ أغنيةَ القلمِ !
تتجسّدُ جسراً دمِ
يتخطّاهُ شعبٌ مقهورْ
وتزغردُ موجةُ نورْ
يُمْحَى فيها العَزْوُ الوقحُ
ويُدقُّ على النصرِ القدحُ

* * *

لم تَنْزِلْ .. حتى الآنْ
لم تَنْزِلْ أمتُنا الميدانْ
ما قاتلْنا .. تدوي الشُّهُبُ

والقهرُ الصامتُ ، والغضبُ
ما خاضَ المعركةَ العربُ

لم تزحفْ أعماقُ الأعماقْ
لم تستنفرْ غيرُ الأطواقْ
ما هبَّ عطاشُ الأرضْ
ألمصلوبونَ على شهقاتِ الأرضْ
في وطني المسفوحِ بحاراً من رملِ
ومقابرِ أحياءٍ تغلي
تتجرّعُ غسلينَ الذلّ

ما كانتْ حرباً ، بلْ محرقةْ
تلكَ اللّمحاتُ المحترقةْ
من تاريخِ الأزلِ الهادرْ
من مأساةِ الشعبِ الصابرْ
قولوا للغزوِ المذعورِ
من طيفِ فدائيّ « مهزومٍ » خلفَ الضفّةِ « مدحورٍ »
ما كانَ بنصرٍ وبطولهْ
أنْ تسحقَ كفاً مغلولهْ
أنْ تشحذَ أسلحةَ الغدرِ
أنْ تضربَ عنقاً في الأسرِ

تلكَ اللّمحاتُ المحترقةْ

كانتْ – وأُؤكّدُها – سَرِقَةْ
لم ننزلْ .. حتى الآنْ
لم ننزلْ محنتنا الميدانْ
يدوي الغزْوُ الصَّلِفُ الوَقِحُ
أنَّ المَيْدانَ سينفتِحُ
وسيَعلَمُ كيفَ يقاتلُ شعبْ
وتشقُّ إلى التحريرِ الدربْ

الجوع والضيف

محمّد عمران

١) مرثية

خبزنا مر ، وعنقود دوالينا تدلى
ميّت العنق ، لماذا زرتنا
أيها الضيف الغريب ؟
أيها القادم من أرض الكآبات الصديقه
حاملاً ، بين جناحيه ، لنا
نكهة الشمس العتيقه
أيها الراقص في موت الحديقه
كيف نلقاك ؟ ولا بيت لنا !!

٢) مرثية أخرى

حين مرّ الغزاة

نهبوا بيتنا الصغير !
سرقوا الخبز ، والجرار المليئه
والفراش الذي ننام عليه
سلبونا حتى السيوف الصديئه
حين مر الغزاة
أخذوا من نحبهن سبايا
تركونا ، على العراء عرايا

٣) صوت :

مُدي لضيفك في العراءِ فراشه
مُدّي له
طبق المحبة ، ضيفنا لا يعتبُ
إسقيه مما نشربُ
غني له
هو لا يحب الخائبين
القاعدين نوادباً ، ونواعيا
هو لا يحب سوى الذين
يتفتحون ، على الدموع ، أزاهراً ، وأغانيا
ألمنشدين
من كان منتصراً ، ومن هزمته خيل الفاتحين !

٤) صوت امرأة :

خمرتنا حامضة ، ورغيف محبتنا مر

والماء المالح نشربه
ماذا نطعم ضيف الليلة ؟ ماذا نسقيه ؟
وبأي فراش نؤويه ؟
والدنيا بردٌ ، والدنيا جوع ، والدنيا قهرٌ !!

٥) مرثية :

بعد الأوان تجيءُ ، لو يوماً أتيتَ على انتظار !
أيام كان لنا نهارٌ ، لو مررت على النهار !
كانت بيادرنا ، وخوتنا ، وكان الكرم يرقص بالثمار
وسدىً توسلنا لمقدمك المجيد ، سُدىً وقفنا
في الباب نرقب وقع خطوكَ ، لم تجئنا
الا وقد مات النهارُ
ومات كوكبنا
ومتنا !!

٦) صوت :

أخجل من وجهي ، من الشمس التي أناختْ
في بيدري ، أخجل من نهاري
من كرمتي وداري
من غبطة الحقل التي أطعمتها لفرس الفرار
أخجل من تاريخي المطعون في الظهر ،
ومن صغاري !

٧) اصوات :

نقول : يا شمس اهجري ترابنا ، دعينا
في غارنا العتيق ، في هجوعنا ، دعينا
نقبع في ظلالنا الوديعه
ننسج من جدائل النجوم
حبلاً من السرور
حبلاً من الدعاء
نرفع منه سلماً الى السماء
نقول : يا شمس اهجري سلامنا ، دعينا
نرحل في مدائن النعاس
في جزر الخمر ،
وفي جنائن الأرماس !

٨) الضيف :

« نشيد »

جئت رسول الفرح العظيم
إليكم ، خبزي معي وخمري
وفي يديّ جمري
أنام في العراء
في خيمة البطحاء
في قبة الحزن ، وفي تشرد الغناء

« نشيد آخر »

أنا رسول الفرح العظيم

من مدن الشمس أتيتُ ، زودتني
بجمرةٍ من نارها المجيدهْ
وأشعلت على فمي قصيدهْ
وقالت : اغتسل بها ! اغتسلتُ
وقالت : احترق بها ! احترقتُ
ومن رماد جسدي خرجتُ
وقلت : ياأم هبيني آية . فقبلتني
في شفتي . وقالت :
آيتك الفريدهْ
تكون كل كلمة تقولها نجماً ، تكون جمرا
تكون قمحاً ، أوتكون خمرا
يأكلها الجائع لايجوعْ
يشربها ، فتهرب الدموعْ !

« نشيد »

أنا رسول الفرح العظيمْ
أقول : ياحزانى
يامتكين في حدائق الدموع
الشمس لاتزوركم هنا ، ولا الربيع
ينزل أرض حزنكم ، وطائر الضياءْ
يخنقه البكاءْ
أنا رسول الفرح العظيمْ

أقول : خبز الظل مرّ ، كوكب الدموع لايضيءْ
أقول : فارس النهار لايجيءْ
الا على جواد أغنيهْ
يغزو بها مملكة البكاءْ
أقول : خبز الشمس أشهى ،
كوكب الغناء وحده يعانق السماء !!

« أغنية »

أغني في حقول الحزن ، أزرع صوتيَ النشوانَ ،
في غابات موتكم الرماديهْ
أعيش ولادة الأحجار والأنهار والمدن الربيعيهْ
أبشر باخضرار الموت ،
أرفع جبهة القصب الذي انكسرا
أقول : غداً ترون سنابل الكلمات ترقص في حقولكمُ
تغني في مراعيكمْ
كأطفال بلا أسماءْ
أتوا من غابة الفرح الآلهية
أقول : على صخور حياتكم سيرف نسرُ الماءْ
يصفق جانحاه فوق أرضكم الجليديهْ
يكسر قبة الصمت الزجاجيةْ
أقول : غداً ستورق أعين الموتى
وتخضر القبورُ ،
وتُولد الصحراء !!

النصر لنا

ملك عبد العزيز

يقول لي : هيا نغير الحديث أنشدينا أغنية
عن النجوم ، عن مرابع الزهور والمطر
ياصاحبي ...
كيف أغني للنجوم
ودونها ستائر الهموم
كيف أغني للمطر
قد جف في العريش في نابلس في القنيطرة

— ٢ —

تبسط لي وليمة الحياة في رحابة خوانها
كيف أسيغ لقمة مغموسة بدمعكم يا اخوتي
بدم أحبابي ...
على الطريق في سيناء ، خلف ضفة الاردن ،

في الجبال الشم في القنيطرة
مشردون مرتين يا أبناء أرضنا المقدسة
من البيوت للخيام للعراء ، والذئاب تلغو في ربوعنا المزدهرة
كيف أغني للمطر
وإخوتي على الرمال ، لا وقاء ، لا سكن
كيف أغني للزهور
قد حطمتها أرجل الغزاة ، دنست ترابها الطهور

- ٣ -

نلبس في الصباح ، في المساء
أقنعة من العقود والملابس المزركشة
نخفي بها الجراح
نشد في الطريق قامة أثقلها الألم
ونبتسم
والجرح غائر وناغر في قلبنا .
ياصاحبي تقول لي :
أغنية عن النجوم والزهور والمطر
وفي فمي دماء اخوتي ؟..
يغص قلبي ...
تخنقني الحروف ...

- ٤ -

أحمل فوق كاهلي

أحزان أرضيَ المخضبة
أحزان أرضيَ المغتصبة
أحمل في فؤادي الجرح غائراً وناغراً
نغير الحديث ألف مرة لكننا نعود
في كل مرة نعود
ودون أن نقصد أو نريد
نعود للجرح الذي نحمله
نغوص فيه لا نريد أن نجهله
نريد أن يلمسنا نلمسه
نريد أن يشغلنا نشغله
ويلهب الأحقاد والاصرار في عروقنا

٥

ينعق ناعق الغربان في بلادنا
يتيه في الملابس المزوقة
يشرع سيف « النقد » والبطولة المصطنعة
يظن أنه على الطاول فارس الفرسان سيد المعمعة
فوق جراح أمتي
يبصق أحرفاً مريضة مزيفة .

ياشاعر النهود والقدود والجوارب الممزقه(١)
بعض أسى بلادي من لحونك المهترئه

(١) تلمح الشاعرة بهذا الى الشاعر نزار قباني .

دع الحساب والعتاب للذين أهرقوا حياتهم
كي يخلقوا مستقبلاً
بمن أراقوا دمهم
على تراب أرضنا المستبسله
بمن تراموا في السجون والمنافي والصحارى المحرقه
لا في المخادع المرفهه .

- ٦ -

يقول لي فتاي : لا ، لاتجزعي
(لم يبلغ العشرين بعد)
نحن هنا باقون سوف يعلمون
فليقبلوا . . .
عامين ، خمسة ، عشرين
الوقت لايهمنا
سنرجع الحق إلى رحابنا
لن يقف التاريخ ، لا
ولن يُفَلّ عزمنا
نحن هنا باقون ، سوف يعلمون .

- ٧ -

أتوق يابنيّ قبل أن أموت
أتوق أن أشاهد العدالة التي تموت
في كل يوم ألف مرة ، في عالم ضميره صموت

أتوق أن أقبل التراب في يافا وفي الجليل
أتوق أن أعانق القدس وأن أطوف بالخليل .

– ٨ –

الله ياصوت انفجار الحق في إيلات
الله ياعزم الرجال ، على خطوط النار ، في بانياس
في القنال
الله ياصوت الرصاص على جبال النار
في القدس في نابلس
يانبضة الحياة في دم الثوار . . .
تطوبني لحونكم
تشد ظهري ، تشعل الأنوار
النصر لي ، النصر لي
مادام في الآجام أسد في الحمى أحرار

رسالة

الى أسماء بنت أبي بكر

ممدوح عدوان

« من العبد الفقير المجند في جيش
أمير المؤمنين المستعصم بالله »

سيدتي
أعرف ان الموت لم يمهلك حتى الآن
وقد حمدنا الله في قلوبنا
انك لم تري رجوعنا بلا عزيمه
يحرنا الفرار ، لاتسوقنا الهزيمه
لم ترسلينا مرة أخرى إلى الميدان

عدنا من الوغى

تركنا في الطريق السيف والحصان

عدنا بلا دم .. بلا جلود

لم تبق في العروق قطرة .. ودون جرح

نحن الذين ندعي

انا نخاف السلخ بعد الذبح

* * *

طلبتُ سيفاً كي أخوض المعركة

فعلموني كيف أنحني لأمسكه

حين وقفت التوت العظام

لأنني عشت حياتي في الظلام ،

دونما وقوف

وغلّقت عيناي لم أبصر طريقي

ولم أر الذي أقابله

طعنت صدر الخصم مرة

فذاب في عروقي

صرت أنا الخصم الذي أقابله

* * *

أحذية قاسية تقرع في الآذان

أحذية تقرع في الرؤوس كالهموم :
« سلامة الانسان في حفظ اللسان
صمتاً فانه يشاء
لا نار في البيوت ، لاسهر
لاصوت ، لاغناء ، لا بكاء ؛
هكذا أمر
نحن الذين نتقن الغناء والبكاء
نتقن فن الحرب والهجوم
نتقن مانشاء ،
هكذا أمر »
فامتثل القدر
لكن جيش الروم والتتار كان يعبر التخوم .

. . .

وركزت عيني على حذائي
ثم سألت سيدي :
« هل يلبس الأخصام في قتالنا
أحذية ثقيلة ؟
نحن نخاف وقعها
نخاف ان يكون من أصول لعبة القتال

ان تلتقي عيناكَ في عينيْ عدوك
الحرب ، أنت تدري سيدي ، خصال
فعلمونا مرة كيف نلاقي أعين الرجال »

. . .

سقطت في السرير كالقتيل
وصلت منهكاً :
وقد ركضت عمري الطويل
فدُقّ بابي بغتة
على جدار النافذه
أراح وجهه الرضيع
ممرّ عينيه على وجهي الذليل
– وكان فيها عتاب وربيع –
« كيف نسيتَني ؟
أنا الذي سقطت منك
كيف أنام خلف هذا الباب في العراء ؟ »
سحبت فوق رأسي اللحاف ، ثم نمت .

. . .

أفقت حين هزني الزحام

فاجأني الظلام ،
كان فوق ذلك اللحاف كالحجر .
رفعت اكوام الحجاره
والزمن المشحون بالبكاء والمراره .
طفت على الشواهد الفارغة البيضاء
ثم كتبت فوقها إسمي
وأسماء جميع الأصدقاء
أسماء اخوتي ووالدي
والعابرين في الطريق
والجالسين في المقاهي
زبن الحانات والبغاء
ثم مشيت صوب باعة الرقيق .

عاشق ..

يا حزيران المشمش

فايز خضور

بلون العفو تنتحبين ، لا جمرُ الحنين يحرُ خابيتي ،
ولا مطرُ التشفي
معي الكتبُ النحاسيّه
أراكِ بها قطوف النخل بعد تيبُّسِ الثمرِ
بلونِ جنازة القمر .
فأرسم وجهكِ المطويَّ بالقصدير ، أختلس الحواشي .
وتنتظرين ، لم تفرح بك السرُرُ العتيقاتُ ..!!
وتنتظرين ، ياوعداً جحيميَّ الولاده .
لك الشطآنُ هودجَ قافلاتِ الملح ، والموجُ الوساده .
ولي وحدي الدروبُ الطينُ ، والحيطانُ — تجفوها العصافيرُ
الشتائيه —

وحين لقيتُ موكبتي ، نجا جسدي
ولكنيَّ حملتُ الخوف أيقونه .
رجعتُ أحنُّ – محروماً – لمن وُلدوا بلا كفن ، ومن ماتوا
إذا انسحبتْ شناشيلُ المنا المقهور –
في عينيَّ ، والرُّكبُ البخيلاتُ .. !!
وينتصر التوجُّعُ في حريق دمي
ويرفع راية اللعنه .
وتنتظرين .. ينطفىء الترقُّبُ في المدى الشفقيِّ ، تنكسرينَ ،
بالأحلام تختبىء العباده .
وتسترخين ، ياصوتاً بدفء الجرح ، لحظة تستي
ورقَ الخريف غوايةُ الشرر ؟!
أنا الوجه الترابيُّ
بلا كفينِ أحمل عالم الأسفنج والحجرِ
وأنت توحِّدُ الأنهار بالشجر .
وجودُكِ – رغم مايَحكي – غيابيْ
يو الليل يسترضيكِ مغفرةَ الزمان المرّ ، لاتبقيه
مدحوراً على العتبه
خذي لون الضفائر منه ، شدّيها على عينيه –
خلّيه لهاثاً في ضنى قصبه .
سقوفُ الطين في دمه ، سقوطُ الموت ، قصة باثعات –
الدمعِ للواحات .

خيولُ الجوع لم توصله ، هزّت رمحه الماثيّ —
لم تزهر به تَعبَه .
وحين طمرت وهمَ الفوز تحت الرمل يا شفةً بعمر الحزن —
كيف نسيت أحزانه ..؟!
أعيدي وجهه المسروقَ ، ردّي للهوى الحجريّ ألوانه ..

المسرحية

عندما يلعب الرجال [1]

سعد الله ونوس – باريس

[المسرح جزء من حديقة عامة
«اصطناعية . فالأشجار تشبه الرسوم
«التوضيحية . كتل من الخضرة مغزلية »

---

(١) حين كتبت هذه المسرحية منذ عامين ، كنت أنوي أن تكون واحدة من سلسلة مسرحيات بعضها قصيرة ، وبعضها طويل ، ويجمعها عنوان واحد هو «الألعاب» .

ذلك كان يبلور بالنسبة لي فهماً معيناً للمسرح من خلال أساسه الوهمي كلعبة مطمحها أن تكون نموذجاً أبرع للعبة الحياة ، وفي أحسن الحالات أن تدغم بها . وطبعاً لا أريد الآن التوسع في هذه النقطة ، لا لأنها مهمة شخصي ، وهي ليست كذلك ، وانما لأن طرح « المسرح » بشكل عام ، والمسرح الذي نبحث عنه بشكل خاص أمام علامة استفهام ، هو الآن موضوع دراسات مستقلة بدأت في اعدادها .

ولكن أردت أن أقول ، إن ضربة مفاجئة قد سقطت على رؤوسنا ونحن في =

أو مخروطية على أعمدة بنية تبدأ غليظة ثم تهزل كلما ارتفعت الى الأعلى . وهي مرصوفة خلال مساحات الحديقة بصورة متوافقة تماماً مع قواعد المنظور كما يتعلمها المبتدئون في الرسم ، وكما يبالغون عادة في تطبيقها ، الى حد يصبح الواقع معه صورة هندسية غير صحيحة وان كانت منهجية . كذلك الأمر بالنسبة للاعشاب ، والأزهار الشمعية التي تبدو أشكالهـــا وألوانها والمسافات بينها منتظمة جداً تناقض اندفاعات الطبيعة المشوشة الفطرية . حتى العصافير نموذجية الشكل مصنوعة من شمع او خشب .

الديكور إذن ليس تقليداً للواقع بل تقليداً لتقليد الواقع . بمعنى آخر ، الانتظام والشكل المدرسي للحديقـة يجب أن يظهرا واضحين كي يعطينا فكرة عن واقع معين جديد .

ماتراه من الحديقة هو صف من الأشجار على بقعة مستطيلة كائنة على يمين المسرح ، وثلاث مساحات .. اثنتان للأعشاب ، وثالثة للأزهار ؛ بالاضافة الى طريقين متصالبين واحدة في المقدمة تخترق المسرح من اليمين الى اليسار ، والثانية تبدأ من منتصف المؤخرة تقريباً ، وتنتهي في منتصف المقدمة . على الحافة الداخلية للطريق الأمامية ، ثمة مقاعد مما نصادفه عادة

=ثمار مشاريعنا الشخصية والمبعثرة . وأن هذه الضربة كانت من القسوة بحيث إن متابعة مشروعنا الشخصي كما كنا نتصوره من قبل أصبحت مستحيلة . الطمأنينة اهتزت ، وكذلك القناعات . ولأننا مطاردون بعرينا ؛ فان كل ماالدينا يصبح جزءاً من شعورنا بالكساح . وهذه المسرحية ، وكثير من فصول المسرحيات الأخرى التي أكتبها منـــذ سنتين هي كسواها يتضمنها الكساح .

إننا نتحرك لأننا لانستطيع أن نتوقف ؛ ولكن مما لاشك فيه ، أن أمامنا فترة غير قصيرة قبل أن نتحرر من بورتنا ، ونعرف بيقين أين نضع أقدامنا .

في الحدائق العامة ، لكنها مرسومة على لوحات ورقية أو كرتونية معلقة أو مثبتة بالأرض . لأفق .

بعد ارتفاع الستار ، نرى بعيداً في مؤخرة الطريق العمودية رجلين لاثنين ملامحها جيداً . أحدهما داوود ، رجل ربعة . والثاني عمر ، قصير هزيل جداً ، ومما يبرز هزاله سترته الواسعة على جسمه النحيل . في البعيد يبدوان مقعيين يلعبان بالدحل ، وقد لايبدو ذلك واضحاً للنظارة ، لكن عبر السياق سيتضح كل شيء .

في المقدمة ، تحت واحدة من هذه الاشجار الاصطناعية ، يجلس على المقعد المرسوم ـ الجلسة متخيلة طبعاً ـ عبد العليم ، وهو شاب في الثامنة والعشرين تقريباً . يرى على وجهه استقرار وتوازن واضحين ، وله عينان متألقتان ببريق حاد نفاذ . قامته طويلة قليلاً ، وهندامه رغم اتساقه لايبدو انيقاً .

بعد فترة داوود وعمر يواليان اللعب في مؤخرة الطريق العمودية وعبد العليم يبدو مسترخياً في جلسته ، أو لايعيرها انتباهاً . تدخل من اليمين وسط هرج وصخب مجموعة من العجائز المسنين جداً . ثلاثة رجال وامرأتان . وجوه عجفاء وعيون ذابلة . وجميعهم منغمرون وبشكل حماسي في لعبة « فطّوم العوراء » . فواحدة من المرأتين معصوبة العينين بمنديل أسود وحولها يهرج الآخرون هاربين من محاولتها الامساك بواحد منهم . قوام اللعبة هو أن تمسك المعصوبة واحداً منهم ؛ فيحل حينئذ مكانها ، وتستمر اللعبة هكذا . لقد دخلوا من اليمين ، وسيقودهم مسير لعبتهم الى الخروج من اليسار . تقريباً انهم يعبرون المسرح فقط .]

المعصوبة - [مومئة بيديها في محاولة اللحاق بواحد منهم] أعرف انكم هنا . أستطيع أن أميز جيداً ضحكة كل منكم . لكن ما أكثف العتمة . [تصمت .. تنصت ، ثم تنقض بيدها نحو اليسار حيث يوجد أحدهم : يقفز هذا بسرعة . تخيب محاولتها وتوشك على السقوط ، فيما يضحك الآخرون] ضربة أخرى خاسرة . ومع هذا فأين ستذهبون ؟

العجوز الأول - [ضاحكاً] لن نذهب بعيداً . سنظل نحوم حولك كالنحل.

المعصوبة - بل قل كالذنابير السامة .

العجوز الثاني - هل بدأت تتسمّين ؟

العجوز الثالث - لاتغضبي بسرعة .

[تتجه المعصوبة يساراً نحو العجوز الثاني . انها ليست متيقنة من صواب اتجاهها]

العجوز الثاني - [وسط الضحك] نعم . ها أنذا . اني أنتظرك . ولكن أقول لك بصراحة احذري أن تدغدغيني في مناطق حساسة .

المعصوبة - حين تمسكك يدي سنرى كيف تهزأ اذن !

[يقترب العجوز الثالث ، ويضربها على ردفيها . تلتفت بسرعة لتمسك به ، فيقفز وهو يضحك]

المعصوبة - هذه اليد ليست غريبة عليّ .

العجوز الثاني - اسمعوا انها تعرف يده .

العجوز الأول - ربما تعوّدت لمساتها من قبل .

[يضحك الجميع]

المعصوبة - لولا كثافة العتمة !

[تضرب يميناً وشمالاً . الهرج يزداد ، وتلتفت الى الوراء ، لكنها تفشل دائماً في اصطياد أي منهم]

العجوز الثانية ـ لاتزعمي أنك ترين أفضل دون عصابة .

المعصوبة ـ حقاً لو أن لي عينيك العمشاوين لما جاز لي أن أزعم .

[يضحك العجائز الثلاثة ، ويرددون الكلمة بهزء]

العجوز الثالث ـ عيناك عمشاوان

العجوز الثاني ـ عمشاوان .

العجوز الأول ـ عيناك عمشاوان . عمشاوان .

العجوز الثانية ـ عيناي عمشاوان ؟

المعصوبة ـ [مخلّفة مكانها ، تنقض نحو اليمين ، وتفر الأخرى]

أتريدين مرآة ؟

العجوز الثانية ـ [تأتيها من الخلف ، وتدفعها في ظهرها حتى تكاد أن تسقط]

خذي إذن .

المعصوبة ـ سيأتي دورك ، وحينئذ غير ضروري أن تعصب عينيك .

آه . . لو أن الظلام أقل سواداً .

العجوز الثاني ـ اعطوها مصباحاً .

العجوز الأول ـ أومنظاراً .

العجوز الثالث ـ [وهو يقترب منها ، ويضربها على كتفها] ولو أن الظلام أقل سواداً فكيف كنا سنضربك اذن !

[تقفز المعصوبة ، فيفر هذا ضاحكاً ، ويخرج من اليسار]

العجوز الثاني ـ [يضربها كالأول على كتفهـا مكرراً] نعم . . وكيف كنا سنضربك اذن !

[تقفز المعصوبة ، فيفر الثاني ضاحكاً ، ويخرج من اليسار]

العجوز الأول – [بعد لحظات ، يهجم بدوره ويضربها على جنبها] حقاً .. وكيف كنا سنضربك اذن !

[تقفز المعصوبة فيفر العجوز ضاحكاً ، ويخرج من اليسار]

العجوز الثانية – [تقترب منها وتضربها بغضب] وهذه مني . انك تستحقين مائة مثلها .

المعصوبة – [تجفل] حتى أنت أيها الرمداء .

العجوز الثانية – [تفر ضاحكة] هل في عصابتك كحل للرمد .

المعصوبة – [تتبعهم ببطء متحسسة الهواء امامها] انتظروا حتى أتعود هذا السواد. حينئذ لن تفيدكم عيونكم كثيراً . . وسنتساوى . أؤكد لكم سنتساوى .

(لحظة) ايه شياطين ابتلعتكم . أين ذهبتم ؟ من هنا .. لابد. ربما اعرف الطريق . لن تذهبوا بعيداً . الطريق قصيرة ، ولن تذهبوا بعيداً .

[تخرج من اليسار .. يرين الصمت من جديد ، ويظل عبد العليم مستغرقاً في جلسته ، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة وادعة . داوود وعمر يواصلان اللعب في المؤخرة . فترة مديدة . ثم يدخل تيسير حاملاً على قسماته عمره المسن الذي نيف على الخمسين وابتسامته الطيبة . يقترب من عبد العليم عبر طريق المقدمة حتى يصل اليه .]

تيسير – [باسماً] كالعادة .. أنت دائماً غارق في أفكارك .

عبد العليم – [يبتسم وقد فوجيء] أهلاً بالعم .

تيسير – [متحمساً] أعرف هذه النظرة . جيداً أعرفها . كالهررة الحاذقة لا تدع شيئاً يفلت منها .. وما هي بالجديدة عليّ . أذكرك طفلاً . تلك الأيام لم تكن تحب اللعب أبداً . وإنما إمساك الأشياء والنظر اليها . كنت أقول للمرحوم والدك . آ ..

كانت صداقتنا أوثق من الأخوة . مالنا . رحم الله تلك الروح . كنت أقول له دائماً . ان عيني ابنك ستحققان أعمالاً عظيمة . وكان يغتبط وجهه ويجيب .. حقاً إنه يختلف عن باقي اخوته .

عبد العليم — [بخجل وتواضع] لا تبالغ يا عم تيسير .

تيسير — أبالغ ! اهناك كثير من الناس ينالون جوائزك وشهاداتك ، حين يقارن المرء بينك وبين ابني وكثير من اقرانه يبدو جيداً فيما اذا كنت أبالغ أم لا ؟

عبد العليم — [لا يزال خجلاً ، وكأنه يريد تغيير دفة الحديث] ولكن تفضل بالجلوس قليلا . إن الشمس جميلة هذا اليوم .

تيسير — لا .. لا أريد أن أضيع وقتك .

عبد العليم — لا أفعل شيئاً في الواقع ، وسيسرني كثيراً أن تشاركني جلستي .

تيسير — [متملصاً] ليس ضرورياً . [لحظة] ثم انني في الحقيقة لا أرتاح اذ أجلس على هــــذه المقاعد . قل لي .. هل تجدها أنت مريحة ؟

عبد العليم — لم أنتبه . انها مقاعد جديدة فيما أحسب .

تيسير — نعم .. ومع هذا .. لا أدري . أشعر وكأنها ليست ثابتة أو كأن المرء حين يجلس عليها لا يكون مستقراً . على كل حال . أفضل تلك القديمة فقد كانت فسيحة وثابتة .

عبد العليم — [مبتسماً] هنالك دائماً اشياء جديدة ينبغي أن نعود عليها . وغالباً ما يكون جديد الاشياء أفضل من قديمها .

تيسير — أفضل ! ذلك سهل أن يقوله شاب مثلك . أما بالنسبة لي فثمة اختلاف أكيد. [يضحك بمودة] مقاعد تلك الأيام مريحة اكثر. وخضار تلك الأيام لذيذة اكثر . و كذلك الهواء والطقس . انظر الى الطقس كيف أصبح يتقلب مرات ومرات خلال نهار واحد . الشمس ذاتها انقلبت صفراء مثل زهرة ذابلة . [يضحك] ستظنني عجوزاً هرماً ينخره التعصب . ولكن في الحقيقة أصبحت الأمور محيرة كثيراً .

عبد العليم — [يبتسم بمعنى أنه يفهم محدثه جيداً] ربما كانت هناك تغييرات حولنا غير أنها طبيعية . وفي رأيي المسألة كلها تتعلق بالعادة لا اكثر .

تيسير — [باهتمام وجدية] أتظن أنها العادة ؟

عبد العليم — لعل أشق روابط الانسان وأمتنها معاً هو العادة !

تيسير — [مفكراً ومفتشاً عن الكلمات] كلا .. ما أعنيه مختلف قليلاً . إنه أصعب من مجرد العادة . [لحظة] سأقول لك إذن بماذا أفكر . اصغ إليّ يا عبد العليم . أنت شاب يفهم . حين أنظر إلى ابني وأقرانه .. [يسيل مسيل الكلام على لسانه] في يوم كنت أنا نفسي ابنـــاً لأب . كم أن كل شيء كان مغايراً وواضحاً ! هل تفهم ماذا أعني ! ما بين الابن وأبيه لا يمكن أن يتطرق اليه الغموض أو الالتباس . وكان الأمر كذلك ، أما هـذه الايام [يهز رأسه] لا أبغي الإثقال عليك بمتاعبي .. ويكفي أن أقول .. حين أنظر إلى ابني

غالباً ما أشعر أنه مخلوق جاء من بلاد غريبة . هو لا يراني - إنه لا يرى شيئاً سوى ألعابه التي ينصرف اليها والآخرين . وتلك ليست حالتي فحسب . انظر حولنا فماذا أنت واجد ؟ اللهو فقط ، وما من أحد يرى الآخر . نعم هذا شعوري .. ما من أحد يرى الآخر .

عبد العليم - [هادىء النبرات] أقدم من جيلنا وجيلكم ياعم ان الناس دائماً يتألمون ويلهون .

تيسير - [يفكر] تقول دائماً ! [لحظة] ربما ، ولكن ليس كمثل هذه الأيام . على الأقل كانت الأرض تبدو ثابتة تحت أقدامنا . ولا أحسبها الآن كذلك . كل شيء يتبدل ويزداد علة - تتشابه في ذلك الشؤون الكبيرة والصغيرة . البارحة مثلاً - لابدّ أنك سمعت بمشاجرة السمان حمزة وعبدالغني المهتدي . -

عبد العليم - لا .. لا أعرف عنها شيئاً .

تيسير - البارحة وقت العصر ، كاد السمّان حمزة أن يقتل عبد الغني المهتدي من أجـل ربـع ليرة . بدأ الكلام ودياً ثم هاج . رفع حمزة كيلو الحديد وضرب الآخر به ، ولولا أنه مال برأسه لقتله . أصابت كتلة الحديد عظم كتفه ، فتهشم . كل ذلك من أجل ربع ليرة . تصوّر .. من أجل ربع ليرة فقط . لقد عشت أكثر منك ياعبد العليم .. وإني أرى حياتنا تزداد كل يوم فوضى واضطراباً .

عبد العليم ـ [عميق الهدوء] ألم تكن الحياة دائماً فوضى قاتلة . المشاكل هي الأخرى قديمة .

تيسير ـ إلا أن الغشاوة التي تضرب على عيوننا لم تكن يوماً بهـذه الكثافة .

عبد العليم ـ ومع هذا فإني أراك الآن جيداً .

تيسير ـ [مبتسماً] ومن يرتاب في ذلك . هل أنت كالآخرين ؟ أعلم جيداً أنك أبصر منهم .

عبد العليم ـ لو صحّ ماتقول لما كنت كثير التعثر بحجارة الطريق هكذا . أمي تسميني ضريراً بلا عمى .

تيسير ـ [ضاحكاً] فعلاً سمعتها تقول ذلك . المرأة الطيبة . ألا تعلم أن بصرك مشغول بمـا هو أهم ، وأن تعثرك بالحجارة ثمنه المزيد من الشهادات .

عبد العليم ـ لطفك يخجلني ياعم تيسير .

تيسير ـ تستحق أكثر يابنيّ . هذه الهيئة الجادّة ، وهاتان العينان المفكرتان . منذ طفولتك كنت ترى أبعد من الآخرين .

عبد العليم ـ [يكتسي وجهه بجد هادىء] لا يجوز لي الادّعاء بأني أرى أبعد من الآخرين . لعلّي أرى الأمور بصورة مختلفة قليلاً . هذا كل شيء . كنا نتحدث مثلاً عن فوضى حياتنا . ومـا حولنا من مظاهر متشابكة يوحي بأن الأوضاع تمعن في التداعي . لكن أتدري . أؤمن رغم كل التعقيد الظاهر أن

من الممكن في وقتنا الحاضر أكثر من أي وقت مضى معالجة فوضى الأشياء .

تيسير – [دهشاً] أتعتقد فعلاً أن ذلك ممكن ؟

عبد العليم – أجل أعتقد

تيسير – [متردداً وما يزال مندهشاً] أنا .. أنا أعرف أن خمسة وعشرين نبياً قد تعاقبوا على هذه الدنيا فما رحلت عنها الشرور ولا حال ذلك دون ترديها في الفوضى .

عبد العليم – الأنبياء ! حقاً .. ولكن لدينا الآن من الوسائل والمناهج ما يجعل المرء يحلم بأن يرى حياتنا كأرفف الصيدليات منسقة .. نظيفة .. لا تقاربها الفوضى . [بتحمس] كل شيء في مكانه ، وكل لفتة في حسابها . أرأيت الى نظافة الصيدليات وحسن ترتيبها . هكذا يصير العالم . [تبرق عيناه] وأظن أن ذلك ممكن .. يقيناً ، لابد أنه ممكن .

تيسير – [بعد فترة .. مأخوذاً بحماسة محدثه] نبيل ما تحلم بــه . عالم كالصيدليات .. أرفف منسقة نظيفة . كم سيكون ذلك رائعاً ! أنت أغزر معرفة من أمثالي . ولا ريب أنك تدرك ماتقول . لكن رغم هذا كلــه أتساءل .. من يستطيع التأكيد ؟

عبد العليم – [شارد النظرة] حين نعرف الى أي حـــد توسّع فهمنا لأنفسنا ولما حولنا يصبح التأكيد جائزاً . [لحظة] قديماً كان الإنسان كالأعمى . كل ما يحيط به ألغاز وأسرار . أما

الآن فقد تغير الأمر . الأسرار تتقشع وكذلك الألغاز . ويوماً بعد يوم يصبح ممكناً أن تنتظم الأمور في أماكنها الصحيحة انتظام الأفلاك في مداراتها . إني لا أحلم . ولكن كما قلت لك ، أرى الأمور بصورة مختلفة .

تيسير – ليتني أراها مثلك . إنك لا تعرف كم هو مريح أن يعتقد المرء بأن غداً هو يوم أفضل . ولكن أهـذا أمر سهل ، والفوضى تبدو حولنا أخصب تكاثراً من الذباب .

عبد العليم – صـار بوسعنا أن نفهم . وتبديد الفوضى سهل إذ تكشف مواقعها . [لحظـة] عندما أتأمل مالدينا أحس أننا لم نكن ضائعين تماماً ، وأننا نحو ضوء حقيقي نسير .

تيسير – [بعتاب] ياعبد العليم . ! أتسمّي مانراه من الغفلة والفساد درباً صحيحة . [محيدة] أين هذا الضوء الذي نسير نحوه .

عبد العليم – [ضاحكا] ربمـا كان وراء تلك الشجرة ، أو خلف سور الحديقة . إني موقن بشكل ما أنه ليس بعيداً جداً .

تيسير – [يظلل عينيه بيده ، ويتظاهر باحـداد النظر ، يتلفت حوله . ضاحكا بتسامح] أقول الحق . لا ألمح ضوءاً حولنا .

عبد العليم – إذن أخشى أن تؤيّد الآن أمي على القول بأني ضرير .

تيسير – لا .. أنت لاخوف عليك . أمـا أنا فمن يعرف مافعله الكبر بأمثالي ..

[تبدأ الشمس بالشحوب خلف غيوم تتجمع في السماء . يبرد الطقس تدريجياً] .

عبد العليم — [بعود جاداً] أتلومني ! معك حق لو فعلت. لعلني لا أحسن التعبير. [لحظة] الواقع ليس سهلاً أن أشرح ما أفكر به. لا أريد القول بأن الفساد لا يوجد، وبأن المشاكل تتناقص. على العكس، ربما كانت الأوضاع تبدو وكأنها تتعقد أكثر فأكثر. إلا أن الإنسان هذه الأيام ليس أعزل. هذا ما أرمي إليه. إنه لمثير جداً أن نتابع ما بلغته معرفتنا. أحياناً يشعر المرء بما يشبه الذهول. [لحظة] ألاحظت كيف أن الأمراض تنهزم يوماً بعد يوم. نعم هذا مثل معقول.. الأمراض. إنها لم تنته طبعاً، غير أنها لم تعد أرواحاً غامضة وشروراً مجهولة. اكتشفنا معظمها، وبذلك صار في مقدورنا أن نعالجها. انظر.. ذلك مثل بسيط على إمكانياتنا. وحين نستطيع تعميم ذلك، فإننا سنعيش في مكان حسن الترتيب.

تيسير — [شارد الوجه مأخوذاً] هذا المكان المرتب كم تخيلته ناس من قبل. الأمراض..! ربما كان ذلك مقبولاً. أما الخيانة فما قولك بها؟

عبد العليم — [مبتسماً] هي مشكلة لها حلول.

تيسير — والحسد؟

عبد العليم — هو أيضاً مشكلة ولها حلول.

تيسير — [تتداعى الأسئلة الثلاث وراء بعضها دون أن يتبدل شروده] والأحزان؟

عبدالعليم - كلها مشاكل . طبعاً ثمة عمل كثير أمامنا . إلا أن بداية الخيط أصبحت بين أصابعنا .

تيسير - لا أدري . . . من المؤكد ان الكتب تحفل بالأشياء المدهشة ، وأنك أعلم من أمثالي . [ينفض رأسه .. بعد لحظة] لكن ما أعرفه جيداً هو ان خمسة وعشرين نبياً قد تعاقبوا على هذه الدنيا فما رحلت عنها الشرور ولا حال ذلك دون ترديها في الفوضى .

عبد العليم - [مبتسماً] أصبحنا نقهر الأمراض .

تيسير - ربما .. غير أن .. [يتوقف لحظة] آه .. خمسة وعشرون نبياً جاؤوا يبلغون الرسالة .. ذلك قديم جداً مع هــذا .. لا أدري .. كنت منذ الطفولة مختلفاً عن بقية الأولاد . لاريب انك ستنال المزيد من الشهادات إن لم تلتق عجائز كثيرين مثلي يضيعون وقتك .

عبد العليم - ياعم . . .

تيسير - لا .. سأتركك الآن إلى مناسبة اخرى .

عبد العليم - قلت لك لا أفعل شيئاً . [تهب نسمة باردة ، فيرتعش تيسير ، ويلف جسده بسترته] .

تيسير - مثلك لديه دائماً مايفعله . [يتلفت حوله ، ينظر الى السماء فيجدها غائمة] ثم .. إنتبه .. ها إن الطقس يتبدل . منذ دقائق كانت الشمس ساطعة والهواء دافئاً . [يضحك] كيف يستطيع عجوز مثلي ألا يستغرب ! والآن وداعاً .

عبد العليم ـ [ضاحكاً] مع السلامة .

[بعد أن يسير تيسير عدة خطوات يلتفت نحوه]

تيسير ـ [بصوت قوي] ألهاثا الحديث . لا تنس أن تبلغ والدتك تحياتي .

عبد العليم ـ شكراً لك يا عم .

[يمضي تيسير . يغوص عبد العليم ثانية في سهومه البائس . ويقترب داووه وعمر من المقدمة .. لا يزالان يلعبان . داوود ـ حوالي الثلاثين ـ وجه بيضاوي ذو ذقن مزدوجة يغلقها خط غائر . الأذنان عريضتان تنفرشان على جانبي الوجه كالمناديل المتسخة . وعيناه زرقاوان تحوط زرقتها خطوط حمراء ، وتلمها أجفان سميكة محتقنة . أما عمر ـ حوالى الثلاثين أيضاً ـ فانه قصير هزيل . وجهه حاد الملامح ، وعيناه تشعان بنوع من التعجرف المتوحد والعنف . انها يلعبان بالدحل لعبة « الشبر والاصابة » . يلقي واحد دحلته ثم يحاول الثاني اصابتها ـ الاصابة تعني الربح بشكل حتمي ـ أو رمي دحلته قريباً منها بعدد من الأشبار اتفق عليه من قبل . فان نجح ربح الرهان وهو هنا خمس دحلات . ويستمر اللعب بنفس الطريقة . قبل أن يصلا الى المقدمة حيث يبدأ حوارهما ، تنقضي فترة مديدة من الصمت ، الضوء يغبر بسبب غياب الشمس ، وهما يتحركان حسب مقتضيات اللعبة ، فيما يظل عبد العليم غارقاً في جلسته وصمته .]

داوود ـ [ويبدو منتفخاً مبتهجاً ككل الرابحين] لنقل شبرين .

عمر ـ [كابي الوجه ، تزداد ملامحه حدة] بل شبراً واحداً .

داوود ـ [ضاحكاً] أنت كأبي ما ان تخسر حتى تصبح عسيراً . البارحة جعلته يكفر بكل شيء . على كل حال قبلت .

عمر - العب .

داوود - [وهو يتهيأ لرمي دحلته] هــذه بسيطة . انظر كيف ساصيبها أيضاً . ورثت عن أمي براعة أصابعها،ودقة رميتها. ان امرأة في الحارة لا تستطيع أن تباريها .

عمر - [محنقاً] لن تروي لي قصة عائلتك . العب .

داوود - [وهو يقذف الدحلة من بين ابهامه وسبابته] لا تكن غضوباً [يصيب دحلة عمر] أرأيت ؟ قلت لك سأصيبها . والآن يدك على خمس دحلات أخرى .

[عمر مغتاظاً يعد له الدحلات ، ويناوله اياها]

عمر - ارم .

داوود - أكل من عرف كيف يمسك الدحلة صار لاعباً.[يرمي دحلته فتقع قرب عبد العليم الذي لا يعيرهما انتباهاً] جــارنا حسن البغدادي لا يستطيع أن يرمي دحلته الا اذا وضعها على ظفر ابهامه ومع هذا فهو لا يبارى . ان الدم محتقن دائماً تحت ظفره المتآكل . والآن ماذا قلت ؟

عمر - ثلاثة أشبار .

داوود - [ضاحكاً] ولم لا تقول متراً .

عمر - [لايخفي ضيقه] طيب .. سنجرب .

داوود - يصبح اللعب في النهاية بلا إثارة .

عمر - [عنيداً] لن أراهن على أقل من ذلك .

داوود — قلت . قلت . إلا أن الرهان حين يكون مضموناً يفقد لذته . والربح لايستوعب إلا جزءاً صغيراً من لذة اللعب .

[عمر يكفهر أكثر . يقعي ويرمي دحلته بحركة حانقة . تأتي بعيدة ويخسر]

داوود — غير معقول . كل هذه التسهيلات ولم تفلح . بصراحة . حرام ان تلعب بعد الآن .

عمر — هل تعفيني من نصائحك وتعليقاتك السخيفة .

داوود — كما تشاء . اسمح لي إذن بخمس دحلات اخرى . كم بقي معك؟ [ضاحكاً] من الآن فصاعداً ، سأوصي خياطي بأن يضع في ثيابي جيوباً إضافية .

عمر — [يتناول الدحلات ويزداد وجهه اكفهراراً] لنتابع .

داوود — الحقيقة لاأجد من العدل أن تواصل اللعب معي .

عمر — [بعنف] ماذا ؟ أتريد الانسحاب؟

داوود — أنا ؟ ولمَ .. ألأنني أخسر ؟ حسن .. وددت لو توفر مابقي معك . ولكن أنت حرّ . ارم .

[يرمي عمر دحلته]

داوود — [باستخفاف] أقول فتراً .

عمر — اسمع . وصلت حدّها . لاأحب المزاح .

داوود — وهل تظنني أمزح ؟

عمر — [دهشا] لاتمزح .؟ العب إذن .

داوود - ســـألعب [يقعي] ولا تقل إن في ذلك سحراً . انظر ..
[يرمي دحلته ، فتقع قرب الأخرى بما يقل عن الفتر] أرأيت
هات أيضاً .

[عمر وكأنه سينشق يفتش في جيوبه فلا يجد الا ثلاث دحلات]

داوود - [يراقبه بشماتة] ألم يبق معك إلا هذا . ماالعمل ؟ هاتها ..
لقــد انتهى اللعب إذن مادمت قد خسرت كل مامعك
[يمد يده ليأخذها، لكن عمراً لايبدو أنه يرى يده] هات .. أم
أنك تلقي عليها نظرة وداع . قبّلها إذاشئت .

عمر - [تزق اللهجة . حاد النظرة] لن أعطيك .

داوود - لن تعطيني . أفضل لك هاتها . لاأريد أن أضيع وقتي . يجب
أن أبحث عن لاعب آخر .

عمر - [بعزم بتناهى] لن أعطيك . وأريد كل ماخسرته .

داوود - [مندهشاً] كيف ؟

عمر - أقول .. أريد ماخسرته .

داوود - [ينخر بازدراء] أما قصة طريفة !

عمر - طريفة أو غير طريفة . ردّ لي ماخسرته .

داوود - وأنا أقول لن أردّ لك دحلة واحدة .

عمر - بل ستردّها .

داوود - لن أردّها . أسلوب قديم . إنك تخادع لكي تنجو بالثلاثة
الأخيرة .

عمر - أخادع ؟

داوود - نعم تخادع وتنصب أيضاً .

عمر - [تحمر عيناه] ولمن تقول هذا الكلام ؟

داوود - طبعاً لك .

عمر - هــذا كثير فعلاً ، وسأجعلنك تدفع ثمن بذاءتك
[الأصوات ترتفع تدريجياً]

داوود - أتهددني ! لم يبق إلا أن اخشى صعلوكاً مثلك .

عمر - صعلوك .

داوود - بل اقل من ذلك .

عمر - آ . لا . . [يهجم على داووه . يتماسكان . ينهض عبد العليم ويرمي بنفسه بينهما]

عبد العليم - سمعت القصة كلها . أمن أجل بعض الدخـــل تختصمان . لن تقولا إن هذا معقول او يمكن التصديق .

عمر - والله سأريك

داوود - أنت ترييني . لماذا لاتجرب ؟

عبد العليم - وكل هذا من أجل بعض الدخل . اللعنة على الدخل .

عمر - [يستل خنجراً من جيبـه الداخلي . بصوت مجروح] انتظر اذن .

داوود - هو ذا الجبن . انك تلجأ للخنجر . ولكن من الذي سيخاف خنجرك الخشبي !

عمر - لن تخاف . [يتجه صوبه]

عبد العليم - [يضع نفسه بينهما ، ويحاول بلهجة صبورة] وما قيمة الدخل ؟ خذا . . أستطيع أن أعطيكما نقوداً تشتريان بهــا عدداً

كبيراً من الدّحل . فقط هدئا نفسيكما قليلاً .

داوود - اعطه هو .. وما لديه عزة في نفسه ترفض .

عمر - [الى عبد العليم] ابتعد .

عبد العليم - (متسامحاً) اني أتكلم جاداً (يتناول من جيبه بعض القطع النقدية ويمدها الى عمر) تستطيع أن تشتري كمية كبيرة منها .. ولكن اطو الآن غضبك وخنجرك ..

عمر - أنت الآخر !

داوود - خذها . لماذا تتردد ؟

عبد العليم - ذلك لايعني شيئاً . اني لا أجد مبرراً للغضب . بعض الدّحل هذه مسألة تافهة للغاية .

داوود - (شامتاً) خذها .. خذها .

(تتقد عينا عمر . يرفع خنجره . يحتدم الموقف بين الثلاثة . تتناثر كلمات : - والله - اقترب - لايجوز - خذ - ملعون أكون لو ..

وينهال الخنجر . يشق صدر عبد العليم من الناحية اليسرى . اننا لانعرف ان كان قد قصد أن يضربه أم لا . يخر عبد العليم أرضاً ، وهو يضع يده على صدره النازف) .

عبد العليم - (من خلال حشرجته) غير أنني كنت . (لحظة) من أجل بعض ..

(تتبعثر الكلمات في أوصال شخير منهك يتهامد . يرين جو كالذهول .)

داوود - (أبله الوجه) لقد قتلته .

(يتردد عمر . ينظر حوله ، ثم يعدو خارجاً من اليمين . داوود حائر . يقف لحظات مشتت العينين . تقفز نظراته حيرى فيما

حوله . بعد فترة ينحني على الجثة . يجرب أن يحملها فلا يستطيع. يجرها قليلاً الى جانب الطريق . لكنه فجأة يتوقف .)

داوود ـ (ينظر حوله) لكن .. من يدري . (وبغتة يطلق ساقيه للريح ، ويخرج من اليمين .)

(يرين على المسرح صمت ثقيل ، وما زالت الأضواء تتخافت . بعد قليل ، يدخل العجائز الذين يلعبون « فطوم العوراء » من اليسار . لقد أصبحت العصابة الآن على عيني العجوز الثالث . نفس الهرج والضحك والحركات القافزة . ان عبورهم المسرح هذه المرة أسرع قليلاً .)

العجوز الأولى ـ والآن .. ما رأيك بالظلام ؟

المعصوب ـ العصابة مشدودة جداً .

العجوز الثاني ـ لاتجرب الحجج الواهية .

المعصوب ـ ولكن .. بالفعل أحس بي رأسي .

العجوز الأولى ـ إطمئن .. بعد قليل لن تحسب أن لك أي رأس .

(يهجم العجوز الأول ويضربه على خاصرته . يحاول ان يمسك به فلا يفلح)

المعصوب ـ قلت لكم منذ البداية ألا تضربوني على خاصرتي . كليتي مريضة .

العجوز الأولى ـ (تصفعه على قفاه) وهنا .. هل تشكو مرضاً ما ؟

المعصوب ـ أنت حاقدة .

العجوز الأولى ـ لقد لعبت دوري حتى نهايته ، ولا تستطيع أن توجه لي أيا لوم .

العجوز الثانية - على كلٍّ لا تبتئس . الغيم أخفى الشمس ورؤيتنا ليست أفضل كثيراً .

المعصوب - الا أنها قاسية . كما لو كانت اطاراً من حديد يقطع الرأس .

(يضربه العجوز الأول) آ . . ضربة غادرة . . ولكن كيف نسيت بهذه السرعة .

العجوز الثاني - اذن خذ . . هذه ضربة أمينة .

العجوز الثانية - (تدفعه من الوراء) وهذه دفعة للمعابثة .

المعصوب - ستزمونني . أين تجدون كل هذه القسوة ؟

العجوز الأولى - لا تتذمر سريعاً هكذا . (وتضربه على بطنه)

المعصوب - (غاضباً) آي . . احذروا اذن . لن أوفركم بعد هذه اللحظة .

(يتقدم نحوهم . يتراجعون أمامه ضاحكين ومصفقين ليخرجوا واحداً إثر الآخر من اليمين)

المعصوب - (وهو يتقدم) كأنني أمشي على هذه الدروب لأول مرة . كيف يختفي كل شيء بهذه السرعة . اني لا أذكر من تفاصيل الطريق الا . . ربما لا شيء تقريباً .

العجوز الثاني - (للأولى) احذري . انه يقترب منك .

العجوز الأول - لا . . انه يريدني

(يتدافعون ، ويخرجون ..)

المعصوب - حقاً يشعر المرء أن رأسه فارغ تماماً . أو أنه بلا رأس . تماماً بلا رأس .

(ويخرج خلفهم بينما يرين الصمت أعمق وأقسى . يصبح الضوء كغلالة الغروب في ساعته المتأخرة .. إمّحت تفاصيل الموجودات وغابت .. بعبن تيسير المسرح ، ولأن العتمة تخفيه يبدو كشبح هزيل يمر أمامنا)

تيسير — لاحول ولا قوة الا بالله العظيم . منذ قليـــل .. (يتلكأ قرب الكرسي) منذ قليل فقط (يتابع سيره ليخرج من اليسار .) لاحول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم .

(ستار)

الفارس الأقرع

« مسرحية في ثلاثة فصول »

نواف أبو الهيجاء

الشخصيات :

(بقية الشخصيات على الصفحة التالية)

الشخصيات :

١ - صوت العجوز
٢ - الكولونيل - رئيس المجلس العسكري لقبيلته.
٣ - النقيب - أحد رؤساء هيئة الاركان عنده
٤ - اللورد - "بمول" آل الكولونيل
٥ - ايفيت - خليلة الكولونيل وجاسوسته
٦ - الجنرال - من اعوان الكولونيل
٧ - الكونت باريل - أحد قواد آل الكولونيل - طامع في السلطة
٨ - مستوها - رئيس المجلس الأعلى لعشيرته
٩ - سارينا - زوجة شقيقه وعشيقته
١٠ - ستيلا - وصيفة سارينا
١١ - ستافرو - عضو المجلس الأعلى للعشيرة
١٢ - آروم » » » »
١٣ - ساروب » » » »
١٤ - آسوم » » » »
١٥ - ساهوم - أحد شيوخ العشيرة
١٦ - الفارس الاقوع
١٧ - كاسوب في دور : آذن عند الكولونيل - وفي دور عضو المجلس الاعلى لعشيرة مستوها
١٨ - صوت الحارس

الفصل الاول

المشهد (١)

(ظلام .الستارة مسدلة . موسيقى حادئة يشوبها حزن. بقع ضوئية ، حمراء وخضراء على الستارة . مع الموسيقى صوت عجوز هادىء مؤثر مع صدى ..)

صوت العجوز ـ لقد حان الوقت يااطفالي .. السماء تمطر في الخارج ولابد من حكاية جديدة . طلبتم الي هذا المساء أن أقص عليكم حكاية ليست كحكايات العام الماضي . حسناً جداً .. سأرتشف قليلا من الشاي ادفىء جوفي قربوا ايديكم الناعمة من نار الموقد الصغير . . الرماد بدأ يتكوم ولكن الجمر احمر كزهر الرمان . . والمطر غزير هذه الليلة . ها . أرى في عيونكم طلبات عجالة . طيب . اسمعوا. قبيلة يااولادي، رجالها شيوخ كلهم ، نساؤها معطلات في البيوت لاشغل لدين الا اعداد الطعام وترتيب الفراش بنجيبن !?. هه.. قد تنجب الواحدة طفلا ولكنه شيخ .. شيخ كامل ، وهذا ، بالطبع ، على ذمة الراوي . فجدتكم هذه الكهلة سمعت الحكاية من جدتها المرحومة. المهم ! في هذه القبيلة الكبيرة شاب ، هو كل ماليها . بالطبع له اولاده واحفاده ! هه .. هذا بالنسبة للقبيلة .

ثمة قبيلة أخرى صغيرة مبعثرة بين القبائل الاخرى لقلة عدد افرادها .. (تختفي البقع الضوئية ، وترتفع الستارة عن المشهد الثاني) .

المشهد (٢)

(يسلط الضوء الاحمر الباهت على طاولة كبيرة وسط المسرح عليها مجموعة من الخرائط وهاتف . ثم يضاء المسرح كله . غرفة فيها طاولة . حولها كرسيان خشبيان يقف خلف الطاولة رجل في الثلاثين يمعن النظر في خريطة مبسوطة امامه . نافذة مغلقة خلفه . الباب في الجانب الايمن من المسرح . مقعد خشبي عريض وفوقـه

مجموعة قطع أسلحة « حديثة » على الجدار الايسر خارطة العالم . يسلط عليها ضوء قوي . الرجل يرتدي بزة الكاكي. يفرك الرجل حاجبيه .. ينفخ . يسمع طرقات على الباب) .

الكولونيل — ادخل (وهو ينظر الى الخارطة)

النقيب — (يفتح الباب ويدخل شاب في العشرينات يرتدي الكاكي أيضاً) صباح الخير ياسيدي الكولونيل ! (مع تحية)

الكولونيل — أهلا .. أهلا .. ماهي الاخبار ياحضرة النقيب ؟ (يجلسان على الكرسيين قبل ان يتكلم النقيب)

النقيب — كل شيء على مايرام ياسيدي . وصلت قبل قليل آخر قافلة بعثنا نطلبها من العشيرة البعيدة .

الكولونيل — (ينهض ويحملق في الخارطة) ياحضرة النقيب أريد ان يكون كل شيء جاهزاً خلال يومين ، أقصى حد . ان الوقت الان مناسب.. يجب ان نضرب ضربتنا بسرعة وشجاعة . ماهي آخر المعلومات عن الأفرع ؟

النقيب — لاتزال ياسيدي متكملا كما هو دائما ! انهم يخشونه كما تعلم ! (ينهض) ، وهو على أية حال لن يستطيع شيئاً مادام مجرداً من السلاح . هه، الشيوخ انهم لايبدأون الاخشية ان يغضب عليهم !

الكولونيل — تلك العشيرة جبارة ياحضرة النقيب . انني اقرأ كتب التاريخ.في يوم ما صنعت امبراطورية اخافت العالم .. التاريخ . مصابيح المستقبل ياحضرة النقيب !

النقيب — بالطبع ياسيدي ولكن المفاجأة ستأخذهم ولسوف نكتسح الارض المطلوبة خلال ساعات معدودات .

الكولونيل — ينبغي ان تتحقق احلامنا (يذرع الغرفة) منذ اعوام طويلة ونحن نعمل من أجل هذه الساعة . لايهدأ لي بال ولايقر قرار حتى أرى اولادنا واحفادنا ونساءنا في تلك البقعة الغنية يرتعون !

النقيب — سيرتعون ياسيدي بفضل حكمتك في رسم الخطة العسكرية المطلوبة

لاتنس أن العبارة الكثيرين في اوساط القبائل الأخرى المحيطة .. يريدون لنا الخير .

الكولونيل – (بغضب) بل انهم يريدون ان يلقوا بعبئنا بعيداً عن اكتافهم ، لاتنس ايضاً ياحضرة النقيب ان كلا من الطرفين يريد ان يزيح النار الى جانبه لكي تستوي طبخته .

النقيب – هذا كلام صحيح !

الكولونيل – بالطبع . لقد اجتمعت معهم مرات عديدة . عندما كنت أطلب منهم النقود أو السلاح كانوا يتذمرون . كنت أقرأ في عيونهم عبارات ، متى نتخلص منكم !؟ متى تريحون اعصابنا ؟ .. أذكر جيداً وجه الجنرال « ساسو » وهو يحمر ويزرق وأنا أذكره بأن رؤوس أموالنا هي التي تخدم جيشه وتبني له المصانع !

« طرقات على الباب »

أدخل ! (الاثنان يحدقان الى الباب انتظاراً للقادم . يدخل رجلان وامرأة . الرجلان في لباس الكاكي والامرأة في العشرين من عمرها . ملابس جذابة ... مظهر مغر .. انيقة جداً .. تحمل حقيبة جلدية)

الكولونيل – (متقدما) أهلا .. أهلا باللورد « دينفيل » وبالجنرال « ابيتو » وأنت ياعزيزتي ايفيت كيف صحتك !؟ (يصافح الجميع بأدب ويتقدم النقيب ، فيما تتحدث ايفيت ، ليصافح الرجلين) .

ايفيت – كل شيء على مايرام ياسيدي الكولونيل !

الكولونيل – (يلتفت الى اللورد والجنرال) أخشى أن تظل واقفين أيها السادة ، فنحن كما تعلمون نقيم مؤقتاً هنا ريثما تتم العملية !

اللورد – « يتكلم ببطء شديد » في .. الحقيقة .. نحن لانريد .. ان .. نمكث طويلاً ... ياسيدي .. أريد فقط .. ان اطمئن .. الى سير العمل !

النقيب – كل شيء على مايرام !

اللورد – أرجو أن لاتذهب أموالي هدراً .

الكولونيل – مستحيل ياسيدي دينفيل . نحن نعرف كيف نتصرف .

الجنرال – والأقرع !

ايفيت – الأقرع ! الأقرع ! الأقرع ! ابعثوني اليه وأنا أجعله طوع أمركم .. بالتأكيد لو كان كشمشون الجبار لما لبسكم الخوف هكذا !

الكولونيل – استهانتنا بالعدو قد تودي بنا الى الجحيم !

ايفيت – أليس الأقرع رجلاً ؟!

النقيب – بالطبع !

ايفيت – وأنا .. ما أنا ؟

الجنرال – أنثى جذابة يا إيفيت !

ايفيت – (وهي تستعرض قوامها امامهم) ألا يستطيع هذا الجسد ان يدير رأس أي رجل في العالم !

النقيب – بل ورأس أي امرأة أيضاً يا إيفيت .

الكولونيل – (بحسم) كفوا عن هذا الهذيان . ان الأقرع لايمكن ان ينساق خلف غانيـــة ، إن هو إلا أعتى من تعشون .. ولن تخلق دليلة جديدة . انه عنك ايضاً . يستطيع وحيداً أن يهزمنا بعصاه لو أراد ذلك !

النقيب – أو لو أراد له الشيوخ ذلك ياسيدي !

الجنرال – لحسن الحظ إن شيوخنا ليسوا كشيوخ العدو . وإلا لكانت الطامة !

اللورد – لازالت تقلقني حكاية الاقرع !

ايفيت – ألم اقل لكم انني أستطيع شيئاً يا سادة ؛ انني بأساليبي الحديثـــة استطيع تغيير معالم التاريخ وسيره .

الكولونيل – بعيداً عن الجسد ! لهذا بعثت في طلبك !

النقيب – أمن أجل الأقرع بعثت في طلبها ياسيدي الكولونيل ؟! هذا غير معقول قط !

الكولونيل – كلا .. لم أبعث اطلبها من أجل الأقرع . أود ان اطرح عليك سؤالاً ياحضرة النقيب .

النقيب – تفضل ياسيدي !

الكولونيل – هلا قلت لي من يحرس اطراف معمورة القبيلة تلك !؟

النقيب – بالطبع اولاد وأحفاد الأقرع .. أولئك الصبية الصغار . لدينا بهذه المناسبة معلومات كثيرة عن اولاده .. مثلاً

اللورد – (مقاطعاً) عفواً ياسيادة النقيب ولكني أود أن أتدخل قبل كل شيء بسؤال قد يثير اهتمام الكولونيل والجنرال . أنت قلت إن أولاد الأقرع هم الذين يحرسون حدود معمورة العشيرة العدوة .

النقيب – أجل !

اللورد – اذن سيثور غضب الأقرع حتماً ؟

الكولونيل – كيف !؟

اللورد – « مبتسماً » لايخفى على سيادتكم ان كل الأمور التي ستجري خلال هذا الاسبوع ستكون .. حرباً .. أليس كذلك !؟

ايفنيت – بالتأكيد !

اللورد – حسناً أيها السادة !! من الذي سيُقتل في هذه الحرب ؟ او ليسوا هم أولاد وأحفاد الأقرع ؟ أوليسوا هم الذين أتوا من صلبه ؟ فكيف تريدون بعد ذلك ان يصمت ؟ انني – ياسادة – اخشى ان تذهب اموالي هباء .. لقد .. تعبت من أجلها .. كثيراً .. كثيراً ولا أريدها ان تذهب من اجل احلام !

الجنرال – ياسيدي اللورد ان في كلامك منطقاً وحجة ولكن لنسمع الكولونيل فلا بد انه وضع لكل شيء حسابه !

النقيب – هذا امر مؤكد .

الكولونيل – يجب ان تعرفوا امرين – سادتي الكرام – الامر الاول : هو ان الشيوخ لايمكن ان يطلقوا له العنان خوفاً على مراكزهم واراضيهم وسلطانهم . السلطان ياسادة وتر حساس « ينثني على احد الكراسي

وتمسكه » كم هو عجيب هذا الخشب ! إنه ثمين .. ثمين جداً ياسيدي اللورد .. كل اموالك لاتستطيع شراء كرسيين خشبيين !!

اللورد — هل هو أثمن من الحياة ؟

الكولونيل — (ضاحكاً) .. كم من الأرواح ذهبت من أجل هذه الكراسي ياسيادة اللورد !! المهم انني بالفعل وضعت لكل شيء حسابه .. وأموالك ستعمل عمل الدم في الجسد . نسيت ان أقول لكم الامر الثاني . ان في بعض اولاده نقاط ضعف يمكن ان نلعب عليها .. لعبة كبيرة !

اللورد — ماهي ؟

الكولونيل — ستعرفها في حينه ياسيدي اللورد ! والآن اذا سمحتم أريد ان اختلي لبعض الوقت مع سيادة الجنرال . (يتحركون للخروج ماعدا الجنرال ، الى ايفيت) . أما أنت فأرجومنك الانتظار ريثما استدعيك بعد لحظات . (النقيب) احرص عليها ياسيادة النقيب . (للورد) ياسيدي لاتقلق كل شيء سيتم بهدوء وبنجاح (يخرج اللورد والنقيب وايفيت — يتبادل الجنرال والكولونيل النظرات لفترة — ثم يبدأ الكولونيل وهو يفرك كفيه) والآن ياسيدي أنا جاهز . «يتحركان صوب الخارطة على الطاولة» انظر هنا ياسيدي الجنرال ! في هذه المنطقة الجبلية تتمركز عصابات « هانوت » .. انت تعرف جيداً مايمكن ان تصنعه هذه العصابات !

الجنرال — بالطبع فأنا المشرف الأول على تدريبها منذ عشر سنوات .

الكولونيل — (يشير الى الخارطة) هنا يمكن ان تلتقي قوات الكونت «باريل» مع مجموعات العصابات !

الجنرال — أتقصد في هذا السهل الوسيع .

الكولونيل — نعم ! فنحن نعلم — حسب آخر المعلومات التي وصلتنا ، بأن هذا السهل يملكه الشيخ «كاسوب» ، وهو على خلاف مع رئيس مجالسهم الشيخ « مستوها » وهذا مايسهل علينا شق الصف الداخلي .

الجنرال — ان احتلال السهل أمر ميسور بهذه الكماشة الرهيبة يا سيادة الكولونيل، ولكن من يضمن ان لا يتحرك الأقرع في حال نشوب خلاف داخلي على الزعامة ؟!

الكولونيل — ان مجرد حدوث انقسام في الرأس — ياسيدي ، سيتبعه انقسام في بقية اجزاء الجسد . انت تعلم ان الصداع والرشح يسببان تخاذلاً في الركبتين واحمراراً في العينين وكسلاً في الجسد .

الجنرال — على كل حال دعنا لانغرق في بحور الاحتمالات التي يمكن حدوثها في صفوف العدو .. دعنا ندرس الاحتمالات الممكن ان تطرأ على صفوفنا عقب النصر . ان الكونت « باربل » يطمع في السلطة منذ سبع سنوات .. هذا النحيف الضعيف البنية يملك دماغاً مخيفاً !

الكولونيل — هذا الكلام يذكرني بما قاله قيصر عن كاسيوس ياسيدي الجنرال ، بالطبع لا اعترض على ماقلت ولكنك : بلا أدنى شك ، تعلم ماهي القوة التي تملكها : المال والعقل .

الجنرال — الفأرة انقذت أسداً ذات يوم ياسيادة الكولونيل ! ينبغي أن لا يغيب عن اذهاننا ان بعضاً من افراد العصابات يؤيدون الكونت باربل بعد ان هيأ لهم فرصة الحصول على الأرض التي حرموا منها طوال العمر !

الكولونيل — هذا لن يؤثر في سير امور رسمناها منذ اعوام !

الجنرال — عندما يفلت الجائع من القفص يحطم كل شيء ، حتى أواني الطعام!! إحم .. مهما يكن من امر فان الكونت باربل رجل يحسب له ألف حساب .

الكولونيل — يمكننا تصفية الحساب معه بعد تصفية حساباتنا مع العدو . المسألة ، كما يجب ان نعرف جميعاً تكمن في السيطرة على بقعة الأرض تلك والاستيطان فيها فوراً .

الجنرال — (يجلس على كرسي) الاستيطان الفوري ؟.. كيف ؟

الكولونيل — « مبتسماً بزهو » لقد رسمت الخطة على الشكل التالي : « يقترب

منه ويصبحان مواجهين للجمهور « تتقدم المجموعات حسب الخطة العسكرية التي اعددناها ، وفي ذات الوقت ترحف خلفهم جيوش من النساء والعوائل والاطفال !

الجنرال — ولكن هذا قد يسبب خطراً على هؤلاء الناس ؟!

الكولونيل — ان الخطة تقتضي استيطانا مباشراً !

الجنرال — واذا فوجئنا بهجوم معاكس ؟!

الكولونيل — لايمكن حدوث هـــذا « الجنرال يقف » .. الآن ، على الأقل ، فالشيوخ لايقررون اموراً خطيرة كالحرب بسرعة . ستتم مشاوراتهم (يرن جرس الهاتف .. يتحول فوراً الى الطاولة وهو يتحدث بمنتهى البطء) . ما هم الا ضفادع بطيئة الحركة . (يرفع السماعة) نعم ؟... أنا هو ؟! أهلاً اهلاً وسهلاً « يغمز الجنرال بعينه » .. مرحباً بالكونت باريل ... كيف الاحوال ؟ ... نعم ... نعم ... كلا .. ليس هنالك غيري !... متى ؟... في تمام الحادية عشرة (ينظر الى الساعة) ، أي قبل مرور عشرين دقيقة ؟!... انني في شوق لرؤيتكم ياسيدي الكونت باريل ... الى اللقاء اذن .. الى اللقاء .. ونحن كذلك ياسيدي .. حسناً جداً .. انني بانتظار سيادتكم .. مع السلامة .. (يضع سماعة الهاتف ويلتفت الى الجنرال بنظرة ذات مغزى) .

الجنرال — (يتطلع الى ساعة يده) لايحسن به أن يأتي وانا أو ايفيت موجودان هنا .. سيشك بالأمر .. هذا اللعين يملك دماغاً مخيفاً !

الكولونيل — لدينا فرصة قبل ان يصل لنتكلم قليلاً ياسيدي الجنرال !

الجنرال — (على عجلة) انني سأزورك في البيت مساء . يجب أن تنهي الآن وقبل حضور هذا اللعين الاستعدادات لمهمة ايفيت .. ان اعتمادنا عليها سيكون نصف الخطة .. نصف النصر !

الكولونيل — (يقترب منه) هذا امر مؤكد ياسيدي الجنرال .. « يتبادلان النظرات يخطو الجنرال باتجاه الباب »

الجنرال — الى اللقاء في البيت .. مساء !

الكولونيل — ليكن حضورك قبل الاجتماع ... الى اللقاء ياسيدي !

(الجنرال يخرج ... الكولونيل وحيداً .. يسير نحو الطاولة .. عيناه تتعلقان بخارطة العالم .. يدنو منها ثم يبدأ يتحدث وكأنه يخاطبها) آه .. ايها العالم ! هل انت حقاً كما أراك هنا على الجدار ؟! أود لو اضمك حقيقة كما أضم حبيبتي واكثر !.. ولكن .. آه .. أود ان اهشمك في بعض الاحيان (يفتح الباب بهدوء تطل ايفيت.. تبتسم .. تتصنع الهدوء في دخولها وهو مستمر في الحديث) انني اعبد ان أرى في هذه البقعة الكبيرة اسم دولتي الجديدة .. أراها هنا .. بحدودها الواسعة .. الواسعة .. تلك التي ستتسع كل يوم .. كل يوم ..

ايفيت — (فجأة مقلدة اللورد) أموالي .. أموالي ... « الكولونيل يجفل ويتجه اليها »

الكولونيل — أهذا أنت يا ايفيت ؟

ايفيت — نعم أيها الكولونيل الحالم (تقترب منه وتطوق رقبته بذراعها) كم احب عينيك الواسعتين .. سعة العالم يا سيدي الكولونيل .. « يقف كالحالم ».. اتذكر أيامنا التي عشناها تحلم بساعة صحو واحدة؟ ؟

الكولونيل — نعم يا ايفيت ! أذكر ساعاتنا كلها ولااستطيع نسيانها لحظة واحدة! لقد كنت لي خير معين . لم يخطىء القائل إن وراء كل عظيم امرأة!

ايفيت — أنت العظيم وانا الامرأة يا حبيبي الكولونيل !

الكولونيل — (يتخلص منها بلطف ولكن بحزم) ليس هذا وقت الحب يا ايفيت.. أن اللعين يا رَبِل قادم الآن !

ايفيت — (فزعة) الان ! ؟ اذن لأخرج !

الكولونيل — ولم اصابك الرعب (ضاحكاً) أهو الأقرع ؟

ايفيت — الأقرع .. الأقرع .. الأقرع ! ! أينا ذهبت .. الأقرع .. كيفما درت وجهي لا اسمع الا اسمه يتردد . قبل ان احضر الى هنا مع

اللورد والجنرال كنت مع مجموعة من الجند . أتعلم ماذا كانوا يقولون ؟ كانوا يقولون ان انتقام الاقرع سيكون رهيباً .. لأننا سنقتل اولاده !

الكولونيل – (بغضب مفاجيء) ومن دون رحمة !! شيخ الأقرع هذا يعذبني ليل نهار ... ولكن انت ... « بمسك يديها » .. أنت يا ايفيت ستقومين خلال الساعات القادمة بمهمة رائعة .. نصف المعركة !

ايفيت – (مندهشة) نصف المعركة ! ؟ (ضاحكة) هل حقاً سترسلني الى الأقرع ؟

الكولونيل – « جاداً » اسمعي يا ايفيت جيداً .. ينبغي ان تكون مهمتك هذه سرية جداً . لا يعلم بها الا انا والجنرال ! النقيب ذاته لم نقل له شيئاً عنها (يشير الى الخرائط الملقاة على الطاولة) تعالي هنا ..(يتقدمان) « يشير باصبعه الى مكان في الخريطة » في هذه القرية . وفي تمام الثانية بعد منتصف الليل سيكون « آسوم » بانتظارك ؟

ايفيت – (مندهشة) آسوم !؟

الكولونيل – نعم يا ايفيت .. آسوم بالذات ..

ايفيت – آسوم !؟. الشيخ الثالث في العشيرة ؟ هذا غير معقول .

الكولونيل – .(يقترب منها) آسوم يا ايفيت من أشد أصدقاء الجنرال اخلاصاً ! إنه

ايفيت – (مقاطعة) آسوم ! ؟ الشيخ آسوم ! ولكنه من أشد الناس عداء لنا ! كم من مرة بعث رسلاً الينا يحملون التهديدات بالقمع والقتل والتشريد إن نحن أقدمنا على اية عملية من شأنها المساس بأرض القبيلة او بأولاد الأقرع ! ؟

الكولونيل – (يبدأ بذرع الغرفة) يا ايفيت أنت لا تدركين أشياء كثيرة تدور هنا . انا المسؤول الأول ، طبعاً ، عن جهلك .. ولكن اعذريني.. ان العذر واضح . كنت أريد ان اخبرك عن كل شيء في أوانه . إن آسوم عميل لنا وللجنرال منذ امد بعيد وهو الذي يبعث الينا بالاخبار عن حالة الأقرع ،وعن حالة الشيوخ وامكانيات القبيلة

والخلافات التي تدور هناك . وهو الذي ارسل الينا يتعجل العمل .. ان هذا الشيخ يحمل علينا لمجرد التغطية . . ولقد سبق وشاهدتيه تحت اسم آخر . اتذكرين « آمادو » ؟

ايفيت — نعم !

الكولونيل — انه آمادو بالذات !

ايفيت — آسوم !! ؟

الكولونيل — ويستطيع في اية لحظة ان يشير باصابع الاتهام الى اي شيخ من دون ان يجرؤ احد على اتهامه !

ايفيت — آسوم ! !

الكولونيل — وامعاناً في ذلك فاننا سنحتل قسماً من اراضيه ونقتل عماله كلهم ونحرق البيوت !

ايفيت — لا أصدق ما اسمعه يا سيدي الكولونيل !

الكولونيل — (يمسك يدها ويشد عليها) بل يجب ان تصدقيه يا ايفيت . اذا أردت ان تطيح ببيت فعليك البدء من الداخل . هذا ما فعلناه . الان اسمعي الخطة . اقتربي وانظري الى الخريطة جيداً .. هنا على الطاولة ... هنا ستلتقين الليلة بالشيخ آسوم—او الصديق آمادو— ستحملين اليه رسالتي هذه (يمد يده الى جيبه ويخرج ورقة مطوية .. يناولها الورقة) احتفظي بها جيداً .. لا تدعي احداً يراك عندما تخرجين من بيتك .. كم ستتعبين نفسك !؟

ايفيت — كل شيء يهون لأجل عينيك يا حبيبي الكولونيل !

الكولونيل — بعد ان تسلميه الرسالة سيعطيك مهمة اخرى !

ايفيت — أين سأقابله وكيف ! ؟

الكولونيل — قلت لك في هذه القرية : (مشيراً الى الخارطة) . . ثم . . سوف لن تكوني وحيدة . ان دليلاً موثوقاً سيأتي اليك في تمام الخامسة مساء

وهو الذي سيأخذك الى اطراف القرية . هنـاك يتركك تتصرفين حسب توجيهات الشيخ آسوم .. انظري هنا (الى الخارطة) .

ايفيت ـ نعم .. ها انذا انظر .. انك تشير الى جبل « هاكوم » !

الكولونيل ـ في هذا الجبل تتمركز الحامية الكبرى للقبيلة ! . . هنا يسكن اكبر اولاد الأقرع !

ايفيت ـ حقا ! !

الكولونيل ـ أجل : وهو اخطر ما يعيق تقدمنا أثناء القتال ، كل ما أريده منك . ان تستعملي هذا (مشيراً الى رأسها) . . . وهـذا (مشيراً الى جسدها) بحرص .. وبكل امكانية !

ايفيت ـ (ضاحكة) الى أي حد ! ?

الكولونيل ـ الى كل حد ممكن .. اننا نريد النصر .. النصر يا ايفيت . . الحلم الكبير القديم !

ايفيت ـ « تضع الورقة تخفيها في صدرها » هل هو مخيف يا سيادة الكولونيل؟

الكولونيل ـ اكبر اولاد الأقرع .. أي خليفته . . لا أريدك ان تقتليه او ان تحاولي قتله .. فهو مرعب ! أريدك ان تجعليه صفراً يوم المعركة .. هل تفهمين ? .. صفراً كاملاً !

ايفيت ـ اجعله نائماً ?!

الكولونيل ـ نائماً ! مخدراً نصف مشلول ! المهم أن لا يقوم بأي عمل .. المهم ان يلعب رأسك اللعبة الخطرة .. وسيرشدك آسوم الى الطريقة المثلى التي ستمكنك من القيام بالعمل الكبير !

ايفيت ـ ماذا سيحدث لي يوم المعركة ?!

الكولونيل ـ صباح يوم المعركة سيكون رجل من اتباع آسوم بانتظارك قرب بيت ابن الأقرع الأكبر ... سيقودك الينا ... آنـذاك نلتقي ... (يحملق في عينيها)

ايفيت ـ كم سأكون متشوقة رؤيتك ?!

الكولونيل ـ (يحتضنها) ... والآن يا ايفيت اذهبي فان هذا الخبيث باريل على وشك الوصول (يتعانقان)

ايفيت ـ الى اللقاء يا حبيبي ! (يتخلص منها ويستعيد رباطة جأشه)

الكولونيل ـ رافقتك السلامة يا ايفيت ! أرجو أن يتم كل شيء كما رسمناه . انني اعتمد عليك كثيراً .. « تصافحه .. » دعي النقيب يدخل يا ايفيت .. مع السلامة .

ايفيت ـ (وهي تفتح الباب لتخرج) اذا اصابني مكروه فهل أطمئن حتى اللحظة الاخيرة انك تحبني ؟

الكولونيل ـ (يداري الانفعال بابتسامة) كفي عن الهذيان ياحبيبتي وابتسمي!

ايفيت ـ (تغتصب ابتسامة) الى اللقاء (تخرج وتغلق الباب) .

(يتطلع الكولونيل الى الباب . ينظر الى الساعة .. ينفخ . يبدأ بالسير من اليمين الى اليسار حول الطاولة ..)

الكولونيل ـ (لنفسه) .. لترافقك السلامة ! ما اقسى لحظات التوقع !! (يقرع الباب) ادخل يا سيادة النقيب .

النقيب ـ (داخلاً) احترامي يا سيدي الكولونيل !

الكولونيل ـ مرحباً ! هل ذهب اللورد ؟

النقيب ـ (ضاحكاً) آه يا سيدي !! تمنيت ان ترى وجهه وهو يسمع أحد الجنود يقول : سيكون انتقام الأقرع رهيباً ! لقد تحول الى قرص دم وجعل يصرخ : أي ستذهب اموالي في سبيل احلام مراهقة ! ها . ها . ها .

(يشاطره الكولونيل الضحك)

الكولونيل ـ اسمع يا حضرة النقيب .. الكونت باريل قادم بعد لحظات .

النقيب ـ ولكن الاجتماع العام للقادة العسكريين ، حسبما أعلم ، سيكون في تمام العاشرة في المنزل !

الكولونيل - لقد هتف لي قبل قليل وطلب مقابلتي . إنت تعرفه جيداً . إنه يحب ، بل يعبد الخمر .. لذا استدع فوراً « كاسوب » ودعه يحضر لنا ثلاثة كؤوس نشربها نخب صحة الكونت باريل !

النقيب - « يبتسم » حاضر ياسيدي الكولونيل .. (يتجه الى الباب .. يفتحه وينادي) ياكاسوب .. كاسوب « يجيبه صوت : نعم ياسيدي النقيب » حضر لنا ثلاثة كؤوس من الخمر (صوت كاسوب : حاضر ياسيدي) !

الكولونيل - (يفرك كفاً بكف) والآن أريدك ان تكون معنا لكي تفهمه بأن كل شيء على ما يرام .. أنت ادرى مني به .. لقد عاشرته سنتين كاملتين !

النقيب - حسناً جداً !

الكولونيل - بعد أن يذهب الكونت باريل أرجو أن تعد محضر الجلسة العسكرية الماضية .. أريد أن اطلع عليه قبل انعقاد جلسة الليلة الأخيرة هذه « جرس الهاتف .. يرفع النقيب السماعة »

النقيب - نعم ! من ؟! ايفيت ؟! .. نعم .. نعم إنه هنا ! تفضلي

الكولونيل - (يتناول منه السماعة) نعم يا ايفيت ! .. نعم .. كلا لم يحضر بعد . أين أنت الآن ؟ .. هنا ؟ .. ماذا تريدين ؟ .. (يضحك) ها انت تسعفينه جيداً ! حـاضر .. ماذا ؟ سيكون كل شيء كما رسمنا . لا تخشي شيئاً ابداً ! يبـدو ان طبع النساء لا يتغير .. الخوف ! على كل حال اطمئني (طرقات على الباب .. يهمس الكولونيل) والآن الى اللقاء .. يبـدو ان الكونت قد حضر (يعيد السماعة ويصرخ) تفضل !

(يدخل الكونت . رجل في الاربعين . نحيف البنية . طويل القامة . يرتدي بزة سوداء ، وربطة عنق حمراء . متأنق جداً)

الكونت - صباح الخير يا سيادة الكولونيل - وأنت ياعزيزي النقيب .

الكولونيل والنقيب - (يرحبان ويصافحانه) اهلاً .. ياسيادة الكونت باريل !

الكولونيل - تفضل ياسيدي.. اجلس (يشير الى أحد الكراسي) اجلس هنا.. يبدو لي أنك متعب !

باريل - (وهو يجلس) ، اني متعب بالفعل ! هؤلاء الجنود الكسالى الخائفون .. لست أدري كيف سنحقق النصر بهم !

النقيب - ماذا في الأمر ياسيدي ؟!

باريل - يخشون غضبة الأقرع .. لا أكف اطمئنهم وانشر لهم البيانات ، اقول فيها ، انه لن يفعل شيئاً ، كل هذا من دون جدوى . قبل ان اهتف لك ياسيادة الكولونيل كان يحدثني قائد فصيل عن تذمر يسود الجنود .. انهم يريدون الحرب بسرعة ... الانتظار يفقدهم أعصابهم !

الكولونيل - (وهو يجلس) ، على كل حال لن يطول انتظارهم طويلا .. ساعات وينتهي كل شيء !

باريل - (بخبث) يبدو لي انكم اعددتم كل شيء !

الكولونيل - (متداركاً) وهل يمكننا اعداد أي شيء في غيابكم ياسيدي الكونت !

باريل - (ببطء) ولم لا ؟ ان الانسان يصعد السلم دون ان يفكر في طريقة الصعود .. بل قد يفكر بمحبوبته أو في وجبة الطعام التي سيتناولها قريباً !

النقيب - (باسماً) هذا في حالة واحدة !

باريل - ماهي ياسيادة النقيب ؟

النقيب - اذا كان هذا الانسان يعرف السلم جيداً . أما اذا كان يصعد السلم للمرة الأولى فانه بلا أدنى شك سيعير السلم اهتماماً كبيراً !

باريل - يعجبني ذكاؤك القليل ياسيادة النقيب . أنت قلت سيعير السلم اهتماماً كبيراً ، ولم تقل بأنه سيفكر بالسلم فقط !

الكولونيل - (ناهضاً) أعتقد ان وجه المقارنة خاطىء ياسيدي الكونت . ان صعود السلم يختلف تماماً عن حرب احتلال كبرى ! يجب أن

تكون جميع الأصابع حاملة وجميع الأعين مفتوحة وجميع الحواس مرهفة متوقعة ! أن العقل هو الذي يصنع كل هذا !

باريل ــ (ينهض) ياسيدي الكولونيل جئت أسألك ما اذا كان الجنرال ابيتو قد مر من هنا اليوم !

النقيب ــ لم نره منذ يومين ؟

باريل ــ أحقاً مايقوله النقيب ؟

الكولونيل ــ هذا صحيح !

باريل ــ (بنظرة شك) .. أصدقك تماماً ! (يزفر) .. ايه .. انني لا أرتاح لتحركات هذا الرجل .. فهو يدور هنا وهناك مع اللورد دينفيل وكأنه يريد ان يذكر الجميع بأنه صديق (المال) .. بأنه يستطيع شراء كل شيء وبيع كل شيء مادام اللورد دينفيل في قبضته يتصرف به كما تتصرف المرأة بالعجين !

الكولونيل ــ هذا ليس بالأمر الخطير !

باريل ــ أجل .. أجل ! فأنا رجل كثير القلق والسؤال ياسيدي الكولونيل ان ... آه ... نسيت ان أخبرك بأنني على أتم الاستعداد .. الآن !

النقيب ــ استعداد ؟!

باريل ــ (منفجراً بالضحك) ... نعم .. لكي أشرب الخمرة !

النقيب ــ (يسرع نحو الباب) هذا اللعين كاسوب لست أدري ماذا فعل (يفتح الباب وينادي) ياكاسوب .. كاسوب .. أين أنت ؟!

صوت كاسوب ــ (هادىء) ها انذا جئت ياسيدي النقيب !.

باريل ــ الخمرة هي الشيء الوحيد الذي يبعث نشوة تعادل نشوة الانتصار..

(يدخل كاسوب ومعه صينية عليها ثلاثة كؤوس)

الكولونيل ــ ان ماتقوله ياسيدي الكونت امر هام للغاية !

باريل ــ لا عليك ! نخب من نشرب ؟!

النقيب ــ نخب سيادة الكونت باريل !

الكولونيل – ما رأي سيدي الكونت ؟!

باريل – منذ ان كنت صغيراً وأنا اشرب نخب الناس . نخب والدي .. جدي .. فلان .. فلانة ، نخب شقيقي وصديقي ! كلا .. كلا .. اليوم ينبغي ان اشرب نخب شيء غير الانسان !

النقيب – فليكن نخب جنودنا !

باريل – انهم من البشر ياسيدي النقيب .. تأكد لي الآن انك ذو ذكاء شحيح رغم السنتين اللتين قضيناهما معاً !!

(ضحك)

الكولونيل – فليكن نخب حربنا المقدسة !

باريل – (بصوت عال) أحسنت .. أحسنت ياسيدي الكولونيل ... ولكن . .

الكولونيل – هذه ليست (انساناً) !

باريل – لكن نخب الحرب والانتصار !

(يرفع الثلاثة كؤوسهم .. يقربونها .. يقرعونها)

الثلاثة (معاً) – نخب الحرب والانتصار

(تخفت الانوار)

نخب الحرب والانتصار

(تخفت الانوار)

نخب الحرب والانتصار

(تطفأ الانوار .. ويسدل الستار)

المشهد (٣)

(غابة .. في الخلف . بقعة جرداء في الوسط . صخرتان ... الأولى في الوسط والاخرى الى اليمين . آسوم : شيخ ملتح يرتدي بنطالا وسترة سوداوين . يجلس على الصخرة وسط المسرح ...)

آسوم – (وهو يفرك راحتيه) : أيها الحارس ! أيها الحارس ! ... ياابن البلاء !

صوت الحارس – نعم ياسيدي الشيخ آسوم ؟ !

آسوم – (ينهض) هل رأيت أحداً ؟

صوت الحارس – (بعد تلكؤ) ... كلا ... ياسيدي فالظلام شديد كما تعلم ! ولكني سأرى كل شيء بعد قليل !

آسوم – (لنفسه) يالغباء ! .. (صائحاً) ماذا تريد ان ترى ؟

صوت الحارس – الشيء الذي اوصيتني ان أراه ياسيدي آسوم !

آسوم – لو لم اكن على ثقة من انك احد انجال آل كاسوب العظام لاتهمتك بغباء العامة الجاهلة !

صوت الحارس – خادمكم ياسيدي الشيخ !

آسوم – ولكن قل لي بالله عليك (فجأة يتحول لينظر خلفه) ... لا ... لا ... تأتي الى هنا ... لاتغادر مكانك أيها الحارس !

صوت الحارس – حاضر ياسيدي ... ماذا كنت تريد ان تقول ؟

آسوم – كنت أريد ان اسألك : ماالذي اوصيتك به ؟

صوت الحارس – بالطبع ياسيدي هو الذي اوصيتني به !

آسوم – (لنفسه) لكأن الغباء بدأ ينتقل من احفاد الاقرع وانجاله الى انجالنا واحفادنا (بصوت عال) ان لم تتذكر الآن ، ايها الحارس، فلسوف أصمك بالغباء !

صوت الحارس – مهلا ياسيدي آسوم ! ألم توصني بكتمان السر ؟!

آسوم – (منفجراً بضحكة)– أقسم بأرواح الاجداد انك غبي حقاً ! هل تريد ان تكتم السر عني !!

صوت الحارس – ولكنك انت ياسيدي قلت لي ذلك : قلت ... لاتفه بشيء حتى لنفسك !

آسوم – صه أيها الغبي ! ... إنتبه لشبحين سيظهران بعد قليل ! شبح رجل وشبح امرأة ... قدهما اليّ فور رؤيتك لهما ! هل تسمعني أيها الحارس ؟!

صوت الحارس – كلي آذان صاغية ياسيدي آسوم !

آسوم – (ينهي الموضوع) إذن هيا ... افتح عينيك جيداً ولاتفه بكلمة.. (يسير الى الصخرة الثانية . عيناه تحملقان في الغابة . يخرج من جيبه لفافة تبغ . يشعلها . يبدأ يمشي من اليمين الى اليسار . يحملق في الغابة من جديد . يستمر على هذه الحالة حوالي دقيقة ؟ (ثم يقول بصوت منخفض) ترى لو علم الفارس الاقرع بما أعده الآن ، ماذا يفعل ؟! هه ... هه ... هه ... ان هو الا وحش مكبل ! بل تيس كبير نركبه متى نشاء ! ها . ها . ها .. (يصرخ باعلى صوته) . اما ترى شيئاً ؟ ... (صمت) ايها الحارس ... يا ابن النبلاء اما رأيت شيئاً ؟.. (صمت) (يسير الى اليمين ويجلس على الصخرة ... لنفسه) ، انه آلة طيعة تماماً ! ما الفرق بينه وبين الاقرع ؟ هه . الاقرع ! العامة السافلة الغربة ! (يرفع رأسه ثم يصرخ) قلت أما رأيت شيئاً ايها الحارس ؟! ... (صمت) .. أين ذهبت أيها الغبي ! ؟ ... تكلم ... اني آمرك ان تتكلم ! تكلم ، (ينهض ، يلقي اللفافة ويختفي بين المسرح .. يعود) أين ذهب

ابن ال ... ال ... كلا ... كلا ... لابد انه شاهدهما فذهب يقودهما الى هنا (يرفع صوته) أين انت ايا الحارس ؟ لسوف اعاقبك ان لم تتكلم ... (صمت ... لنفسه) اللعين تركني وحيداً ! ماذا افعل اذا حضر احد انجال الأقرع ؟ يالفضيحة ! ! يالفضيحة الشنيعة ! (يرفع صوته) قلت لك اجب أيها الحارس ... أجب اجب ... أين انت ؟!

صوت الحارس – (من بعيد) ، هانحن قادمون ياسيدي آسوم ! لقد احضرت الشخصين معي !

آسوم – (يتنفس بعمق) دعها تدخل اليّ وحدها ! لا أريد احداً غيرها ! هل تسمعني ؟

صوت الحارس – (يقترب) نعم ياسيدي ... سيبقى رفيقها معي نتجاذب الحديث، فهو شاب ظريف على مايبدو !

آسوم – هيا ارسلها اليّ ...

صوت ايفيت – (من قريب) اين انت ياسيدي آسوم ؟

آسوم – هنا ... الى يسارك يا أجل ايفيت !

(تظهر ايفيت من بين المسرح) أهلا ... اهلا

ايفيت – (وهما يتصافحان) .. اهلا بالشيخ آسوم .. ويحي ... انك آمادو ! !

آسوم – آمادو ... آسوم ... لافرق !

ايفيت – يا الهي كم أنت شاحب اللون !

آسوم – لشد ما كان الانتظار صعباً ! انه كمن ينتظر ان يلفوا حبل المشنقة حول عنقه وهم يبطئون في ذلك كثيراً ياايفيت !

ايفيت – شتان مابين الامرين ايها الشيخ النبيل (تدس يدها في صدرها تخرج الرسالة) .. تفضل ..

آسوم – (يتناولها) من العزيز الكولونيل (يفضها ويقرأها) ... آه لكم انا مشتاق لرؤيته !

ايفيت – (وهي تجلس على الصخرة) متشوق لرؤيتي أيها الشيخ ! ماذا لو سمعك الكولونيل الان !؟

آسوم – وما الفرق بيني وبينه ؟ ألسنا اصدقاء منذ القدم ؟ ثم ، هل نسيت انني اقوم بعمل لايجرؤ الكولونيل نفسه على القيام به .

ايفيت – انه يحتاج الى كثير من الدهاء ... هذا العمل ياسيدي آسوم . لقد جئت اليّ ورأيتك سالماً وانا واثقة من اننا سنتعاون الى اقصى الحدود !

آسوم – ايفيت ! ! لكم تكونين جاهلة ان ظننت أنني اعاونكم من أجل سواد عيني الكولونيل فحسب (منتبهاً) ولكن . . عليك شيء آخر !

ايفيت – سلمك الاله يا سيدي آسوم ! نحن لن ننسى بالطبع مكافأة كل من مد يد المساعدة !

آسوم – يد المساعدة ! ! يد المساعدة ! كم هو أمر عظيم ان يدل الفلاح الثعلب على إماكن دجاجاته ! بل – كلا .. ان هذا تشبيه غبي ! ولكن –

ايفيت – ماذا ؟

آسوم – أأسالك ؟

ايفيت – تفضل !

آسوم – هل كان يوداً غبياً ! ؟

ايفيت – عفوك ! أنت بدأت تخلط بين أمرين .. كأني بك لا تميز الطحين من الثرى الابيض !

آسوم – (مشيحاً بوجهه) ... كيف يا ايفيت ؟ .. كيف ؟

ايفيت – (بنفاد صبر) يوداً خائن فحسب !

آسوم – ماذا تعني الخيانة في اعتقادك يا ايفيت ؟ هل هي مجرد وشاية برفيق ؟ أم أنها تتعدى تلك الحدود ؟

ايفيت – (ناهضة) هل تريد ان تصغي إلي أيها الشيخ آسوم أم لا ؟ .. كثيرون هم الذين يعتقدون أن « نيرون » نفسه كان خائناً ، أما انا

فلا أعتقد ذلك أبداً. نيرون حاكم وهذا ما تعرفه انت. وهذا الحاكم أراد أن يغير معالم مدينة كاملة هي من صنعه وله!

آسوم – كلام فارغ!

ايفيت – كلا! ان احراق مدينة كاحراق جثة! ما الفارق بين قتل انسان ووأد فكره؟ أليس الانسان هو حامل الفكرة ومنقذها!؟

آسوم – اعذريني ان قلت ان هذا خلط!

ايفيت – لكأني جئت الى هنا من أجل ان نتناقش في أمور بعيدة عنا كل البعد! انك تخدمنا بثمن.. ونحن لا يمكن ان نتعامل مع الناس من دون ثمن! هذا تدركه وتعرفه يا عزيزي الشيخ آسوم!

آسوم – (يتهالك جالساً) بين الخطأ والصواب حد هو كالسراط المستقيم تماماً.. كالفرق بين العبقرية والجنون! قد أبدو اليوم بنظركم مجرد تاجر

ايفيت – (مقاطعة) هذه الكلمة هي بالضبط ما ينطبق على الوضع بيننا. نحن جميعاً تجار يا سيدي آسوم. أنت تبيع ونحن نشتري! البائع هو مشتر كذلك.. هل توافق أم لا!؟

آسوم – والنتيجة!؟

ايفيت – ما بين الربح والخسارة يظل الانسان مربوطاً بوتد جذوره في باطن الارض مغروسة! يظل حتى الموت! بل قد يكون في الموت انتصاراً لقيم وهدماً لأخرى!

صوت الحارس – (فجأة) يا سيدي آسوم!

آسوم – (بصوت عال) ماذا هناك أيها الحارس!؟

صوت الحارس – ان هذا الرفيق يريد العودة الى حيث أتى.

آسوم – انتظر لحظة (لأيفيت) هل يذهب!؟

ايفيت – فليذهب، لربما كانوا في حاجة اليه.

آسوم – أخشى ان يضل الطريق فيقع في أيدي احفاد الأقرع!

ايفيت ـ (ضاحكة) انه دليل يا سيدي آسوم !

آسوم ـ حسناً جداً (للحارس بصوت عال) دعه يذهب أيها الحارس .

صوت الحارس ـ ولكني سأظل هكذا وحيداً !

آسوم ـ سر معه قليلاً وعد .. هكذا لن تظل وحيداً لفترة طويلة ! ! . . .
هل تسمعني يا ابن البلاء ! ؟

صوت الحارس ـ إنني اسمعك يا سيدي ..

آسوم ـ (لايفيت) ... والان .. ما هو الثمن ؟

ايفيت ـ اعرف بضاعتك يا عزيزي الشيخ آسوم !

آسوم ـ (مقترباً منها) كم أنت جميلة يا ايفيت ! (ايفيت تبتسم بمكر) بالمناسبة هل تعتقدين ان حرية الاختيار تجعل من الانسان شيئاً نفيساً حقاً !؟

ايفيت ـ حرية الاختيار تجعل الانسان انساناً فحسب !

آسوم ـ فلتسقط الدمى يا ايفيت ! ان امرأة مثلك لتعادل نصف نساء عشيرتنا ! .. انهن لحم ودماء فقط !

ايفيت ـ (متبرمة) سنعود من جديد الى مدارات الفلسفة يا عزيزي آسوم..
أين هي بضاعتك ! ؟

آسوم ـ والثمن ! ؟

ايفيت ـ البائع عادة يطلب الثمن والمشتري يدفع ما يستطيع . . أو ما يراه مناسباً .

آسوم ـ عظيم ! ماذا تدفعين ثمناً للنصر ؟

ايفيت ـ الأرواح !

آسوم ـ وماذا اصنع بالأرواح ! ؟ هل تجعل مني زعيم العشيرة الأوحد ! ؟
هل تجعل مني سيداً كبيراً تخشاه العشائر ! ؟ هل تصنع الأرواح شيئاً خطيراً حقاً ! ؟

ايفيت – الروح هي اعز ما يملك الانسان! حين يموت الانسان لا يحمل مجده معه الى القبر .. اليس كذلك ! ؟

آسوم – بل يحمله يا ايفيت ! ان من يصنع المجد يظل حامله الى الابـد . ألا نكرم القيصر عند ذكره ! بل وقبل قليل ذكرت نيرون ! بل ان المجد ، كما يخيل لي ، يرتبط اسمه باسم الانسان الذي يصنعه . . رغم ان المجد كما يقال لله وحده ! ان التاريخ مملوء باسماء لا تذكر الا والمجد ملازم لها ! . عندما يذكر الافرنسيون نابليون لا يذكرون هزيمته في واترلو فحسب، بل يذكرون قبل كل شيء جميع الانتصارات التي أحرزها والأمجاد التي بناها .. إيه .. وعلى هذا الأساس أراني مثلاً فاشلاً للحاصلين على المجد !

ايفيت – لكم تبدو ساذجاً رغم العقل الذي تملكه يا آسوم . (تمسك يده) .

آسوم – (مشيحاً بوجهه عنها) : والآن حانت اللحظة الحاسمة يا ايفيت! انني اقدم لكم النصر على طبق من ذهب ، كما قدموا رأس أبي الشهداء الى احد خلفاء المسلمين من بني امية !

ايفيت – (متهكمة) وهل تخشى ذكر الاسماء !؟

آسوم – وما يضير الاسم !؟ العمل هو المهم ! هو الأساس . ألم أقل لك !؟

ايفيت – رائع اذن .. أنت تقدم لنا النصر !! كيف !؟

آسوم – الثمن يا ايفيت ! لم تقولي لي كيف حال الكولونيل .

ايفيت – (تترك يده) انه بخير وقد أوصاني ان احمل اليك كل تمنياته وكل رجاء بأن تستطيع بلوغ ماتريده في أقصر وقت ممكن !

آسوم – كم انت جميلة عندما تبتسمين ؟

ايفيت – لسوف ترى البسمات في صفاء عجيب بعد ان تقبض على البضاعة وتأخذ الثمن !

آسوم – (شارداً) انه خطير !

ايفيت – أعلم ذلك ، ولكنه ليس بأخطر من الفارس الأقرع أليس كذلك !؟

آسوم - ان هو الا خليفته وهنا خطره يا ايفيت ! لقد أعددت لكل شيء عدته ! لم لايكون هو الخائن ؟!

ايفيت - كيف ؟!

آسوم - يجب القاء القبض عليه أولا !

ايفيت - هذا يتوقف عليك . كيف رسمت الأمر ؟!

آسوم - (يذرع المكان) لقد كتبت رسالة بخط مستوها رئيس مجلس المشائر عندنا ! الرسالة تقول : ان حاملة الرسالة - أي انت - انسانة موثوق بها وان عليك ، يا ابن الأقرع الاكبر ، تنفيذ اوامر شفهية تحملها اليك مني ومن ستافرو ... « يضحك » .. اوامر !! ها . ها . ها . ان الشباب .. لاسيا شباب عشيرتنا يضيعون في العيون الوسيعة والنظرة الساحرة . نحن السبب بالطبع .. لقد علمناهم الكبت .. جعلناهم عبيداً للرغبة الحبيسة في اعماقهم .. انت تملكين شيئين هما عماد نجاح كل الخطة !

ايفيت - أشكرك !

آسوم - (مستمراً) السحر الانثوي والعقل . لا اقول ان ابن الاقرع الأكبر غبي ولايملك دماغاً مخيفاً .. كلا .. ولكن مطيع .. اذكر انني شاهدته مرة .. سأصفه لك ، انه جميل !

ايفيت - شيء حسن !

آسوم - كلا .. كلا .. هذا شيء خطير ! جمال المرأة أمر طبيعي .. اما جمال الرجل فهذا أمر خارج عن المألوف . العينان السوداوان الواسعتان ، الشعر الكثيف الأسود ، الأنف الدقيق الشامخ ، لكأنه انف إله اغريقي ، الطول العملاق ، العضلات المفتولة .. الفم المكتنز الشهي ! آه .. لكم انا خائف عليك منه !

ايفيت - علي أنا يا آسوم (تبحلق في عينيه مقتربة منه)

آسوم - الحريص هو الذي يلدغ في كثير من الاحيان !

ايفيت: ـ في كثير من الأحيان ! ولكن ـ آه ـ ماذا سيكون رد فعل الافعوع ؟ ألن يغضب ؟

آسوم: ـ هذا ما علي ان اوقفه !

ايفيت: ـ كيف ؟

آسوم: ـ الافعى تختبىء في التبن بعد ان تلدغ.

ايفيت ـ لم أفهمك !!

آسوم: ـ انت ذكية .. يجب ان تفهمي . حتى كان اجدادكم ينتمون الى المجموعات المتفقة على مبدأ واحد ، كيف كانوا يتصرفون ؟!

ايفيت: ـ (ضاحكة) هل أصبحوا اساتذة ؟

أسوم: ـ سألتك كيف كانوا يتصرفون ؟!

ايفيت: ـ الالغام !

آسوم: ـ الالغام التي تفجر روح الانتقام في الرأس ، في اليدين ، في الفكر .. أليس كذلك ؟!

ايفيت ـ أجل !

آسوم ـ هذا ما أقوم به : يجب أن تكون الى الأفعوع الأكبر صباح هذا اليوم في قبضتكم (تخرج من جيبه رسالة) وهذه الرسالة هي الضمانة الاولى لالقاء القبض عليه . اني أعطيك مزيداً من التعليمات . دعيه يبعد الحراس عن البيت اولاً . ابقي معه فترة من الزمن .. كلميه عني .. اشتميني أمامه .. قولي له ان آسوم يريد لمستوها السوء !.. وأن مستوها متخوف مني . قولي أني عذبت كثيراً من أولاده وأحفاده .. وأن أجدادي كانوا ظالمين وبأن مستوها سيتخلص مني في أقرب فرصة . قولي له ان ساقرو ، ذلك الشيخ الطاعن في السن ، دون افضاحكم .. امتدحيه كثيراً . هل تفهمين ؟

ايفيت ـ كلا !

آسوم ـ حسناً ! المهم أن تقولي هذه الأشياء ، وسترين بعد ذلك النتائج العجيبة للسحر ..

ايفيت ـ أي سحر ؟!

آسوم – سحر أساليب أجدادكم ! ولكن ماهي أخبار الجنرال « ساسو »!؟

ايفيت – يلعب على جميع الحبال !

آسوم – انني اخشاه جداً . أخشى ان يعلن ، بعد ان يسمع النتيجة ، صداقته لعشيرتنا وبالتالي يتعاون مع القزم الداهية آروم !

ايفيت – آروم !؟.. من يكون !؟

آسوم – انه صديق الجنرال « ساسو » وعضو مجلس العشيرة عندنا .

ايفيت – الجنرال ساسو بالذات !؟

آسوم – الجنرال ساسو بالذات ! اطلبي من الكولونيل ان يأخذ حذره منه ، فهو لايعطي شيئاً الا مقابل ثمن باهظ .

ايفيت – ولكنه يمد يد المساعدة لنا .

آسوم – على اية حال يمكن الاستفادة من مساعدته ، على ان تكونوا حذرين ، فهو خطر للغاية . سيترككم مقابل ذلك ، سيظل يشد الحبل حول اعناقكم بيدكم بالشنق كلما حاولتم الابتعاد عنه !

ايفيت – المهم .. هات الرحالة .

آسوم – ها . ها . الثمن !؟

ايفيت – الا تريد ان تصبح شيخ العشيرة الأوحد !؟

آسوم – بلى .

ايفيت – ستصبح عما قريب !

صوت الحارس – (من الخارج) ياسيدي الشيخ آسوم !

آسوم – ماذا تريد يا ابن النبلاء !؟

صوت الحارس – ان النهار يطلع .. ألا تريد العودة !؟

آسوم – هل مللت الانتظار !؟

صوت الحارس – ان الوحدة على ابن النبلاء شيء قاس وتعبس ياسيدي !

آسوم ـ (لايفيت) هل تدركين الفرق بين هذا الحارس وبين الرجل الذي انت ذاهبة اليه ؟

ايفيت ـ كلا !

صوت الحارس ـ أين أنت ياسيدي !؟

آسوم ـ (للحارس) سنذهب بعد قليل يا ابن البلاء !

صوت الحارس ـ أخشى ان يحضر أحد الرعاع ياسيدي ؟

آسوم ـ لاتخش شيئاً ! هل سلاحك معك !؟

صوت الحارس ـ نعم ياسيدي ! ولكن الشمس ستشرق بعد لحظات واخشى ان تنكشف !

آسوم ـ صه !

صوت الحارس ـ حاضر ياسيدي ، انني اسكت ولكنك أنت بالذات طلبت الي ان انبهك الى الوقت من حين لآخر .

ايفيت ـ (بصوت عال) يا ابن البلاء .. هل تسمعني ؟!

صوت الحارس ـ نعم ياسيدتي !

ايفيت ـ تسل بالعد من واحد الى مائة .. وهكذا !

صوت الحارس ـ حاضر ياسيدتي الجميلة !

آسوم ـ حتى الحارس أدرك انك جميلة .. كيف ؟!

ايفيت ـ ألم يرني قبيل دقائق ؟!

آسوم ـ ولكن الظلام ـ آه .. ان نورك ليقتل الظلام ياايفيت .. الحلوة .. كم ايفيت لديكم !

ايفيت ـ كثيرات جداً .. معظم نسائنا ايفيت !

آسوم ـ ياللهول .. والآن .. المهم اعتقال ابن الفارس الأقرع انني اعتمد عليك ياجميلتي (يناولها الرسالة)

ايفيت ـ (تأخذ الرسالة) انت تعتمد على الحقيقة ياسيدي آسوم (تدس

الرسالة في صدرها)

آسوم — أتشي أن أكون الرسالة .. ها . ها . ها .

ايفيت — (ضاحكة) أنت أغلى من كل الرسائل عندي .

آسوم — ايفيت ! متى أقبض الدفعة الأولى !؟

ايفيت — أي دفعة يا شيخي العزيز !؟

آسوم — النقود ! المال شيء أساسي في كل عملية ! ألم يقم المال بإسناد هائل للعملية التي تشرعون في تنفيذها انتم !؟

ايفيت — أمر بديهي !

آسوم — وأنا .. أنا آسوم الذي يريد ان يدفع إنما باحظا الكرسي الكبير الأوحد .. أليست بحاجة الى مصل !؟

ايفيت — الدم أهم من المصل !

آسوم — وإذا كانت الشرايين جافة ؟

ايفيت — آنذاك ينبغي استعمال المصل . ان العلاج الطبيعي أهم . وأفضل من العلاج بالمصل ، ولكن

آسوم — (مقاطعاً) عندما يحضر الماء يبطل التيمم ! أي حين يكون المال متوفراً نستطيع تجنب الكثير من المشاكل وبالتالي نقتلع صخوراً وتردم حفر كثيرة لاداعي لوجودها مطلقاً !

ايفيت — سأوصي ان تصلك الدفعة الأولى بعد يومين !

آسوم — لاتنسي أن خلق الاتباع له وسائل متعددة ، ولكن هذه الوسائل شائكة وأفضلها ، وأبسطها ، هي وسيلة الجيب واليد المملوءة .. المال ياعزيزتي ايفيت ! المال !

ايفيت — هل توزع الأموال على أجداد الأقرع ؟

آسوم — النار ستضرم حالاً ! ولكن من يضمن استمرارها !؟ المزيد من الحطب يضمن اشتعال النار ... هكذا تستمر تطبيخ العملية .. ويقتضي الأمر !

ايفيت — (تلقي نظرة الى الساعة) علي ان أذهب الآن .

آسوم — متى أراك ثانية ؟

ايفيت — عندما تصبح رئيس المجلس الأعلى للعشيرة سأكون بين يديك ، ان لم أكن انا ، فهناك أكثر من ايفيت كما قلت لك.. ولكن— بالنسبة للنقود — هل ...

آسوم — (مقاطعاً) ان أولاد وأحفاد الاقرع بشر.. اليس كذلك ؟!

ايفيت — هذا ما اعتقده .

آسوم — والبشر قد تعميهم المغريات يا ايفيت ! سأجد من هو متعطش لرؤية القرش . آنذاك أنفذ داخل البيت بوسائل لايكن الشك بها .

ايفيت — من اين اتجه ؟!

آسوم — الى عين الغابة .. هناك صخور بركانية كبيرة ، سيري وسطها وستجدين حراساً هناك . أبرزي الرسالة وقولي انها لابن الفارس الأقرع . سيقودونك اليه .. هناك تتصرفين .. ولكن اياك والقتل !

ايفيت — المهم تعطيله !

آسوم — المهم اعتقاله . قولي له ان معك أمراً صريحاً بالاتجاه الى الحدود . هناك بالطبع عصابات هائلون . تعتقلونه وتضعونه في مكان قصي ، ومن ثم تزعمون انه معكم — او انه رهينتكم . سوف لن يعلم احد بالأمر طبعاً .. حتى هذا الحارس !

ايفيت — (تصافحه) الى اللقاء . . .

آسوم — أتمنى لك النجاح .. رافقتك السلامة !

(تخرج)

آسوم — (يخرج لفافة ويشعلها) لعل الأمور ستسير نحو الأفضل منذ الآن .. لأعجل.. لكي لاينكشف الأمر . (بصوت عال)

يا ابن النبلاء ! (صمت) ... يا ابن النبلاء !

صوت الحارس ـ نعم ياسيدي .. لقد انتهت المائة الثانية الآن !

آسوم ـ حسناً لن نحتاج الى مزيد من العد . انني آت اليك لنعود فوراً !

صوت الحارس ـ هيا إذن .. ياسيدي .. ان الوحدة تقتلني ..

(يخرج آسوم .. تطفأ الأنوار)

ـ البقية في العدد القادم ـ

المقاطعة العربية (١) والقانون الدولي

تأليف : جوزيف مغيزل

عرض وتحليل : ميشيل كيلو

يمكن للمرء أن يقول ان وجهة النظر العربية حول الكيان الصهيوني كانت حتى حرب حزيران الأخيرة في خطوطها العامة كما يلي : « اسرائيل استعمار استيطاني تدعمه الأمبريالية العالمية ، وخاصة القسم القائد منها ، أي امبريالية الولايات المتحدة ، ولأن هذا الاستعمار قد رتب كل اموره ترتيباً عسكرياً ووصل الى اهدافه بالقوة ، فليس هناك من سبيل لطرده من الوطن العربي إلا القوة المسلحة . ان الحل ذو طبيعة عسكرية اولاً وأخيراً ، لهذا يجب التركيز فقط عليه دون سواه » . هذه النظرة صحيحة وصادقة بدون شك ، ولكنها باعطائها للحل العسكري كل

(١) منشورات منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث – بيروت ١٩٦٨ .

الادوار، لا الدور الرئيسي الحاسم فقط، نسيت جهات أخرى يمكننا محاربة العدو عليها . صحيح أن الحق للأقوى، ولكن هذا الأقوى ليس بالضرورة من يملك عتاداً عسكرياً أكثر ، بل ذلك الذي يستطيع أن يستخدم كل إمكاناته، وعلى رأسها العسكرية ، استخداماً منسجماً مدروساً ، ذلك الذي يستطيع أن يضع كل ما لديه في خدمة هدف واضح ، دون أن ينسى حتى أصغر جزء في هذا الكل .

بعد العدوان الأخير بدأت عملية مراجعة للنفس وللأخطاء شملت أحياناً كل شيء ، واقتصرت في أحيان أخرى على بعض النواحي فقط ، ولكنها على أية حال كانت مفيدة في احتواء تعالم التجربة المرة التي مررنا بها. لذا رأينا أن نشاطات أخرى كثيرة، ثقافية، تجارية، سياحية، اقتصادية ... الخ قد تقدمت لتواكب التركيز على الجانب العسكري باعتبارها مكملة له . وقد نهجت عملية المراجعة هذه سبيلين رئيسيين : أ — ارتباطها بقضية فلسطين ، باعتبارها قضية من جملة القضايا العربية ، بل القضية المركزية التي يتفرع عنها كل شيء (خاصة بعد احتلال اراض عربية غير فلسطينية بعد الخامس من حزيران) .

ب — ارتباطها ببنية المجتمعات العربية الداخلية وفحص مدى تحمل هذه البنية لمتطلبات المعركة العربية مع الغزو الصهيوني ، وقدرتها على الوصول الى المستوى الذي تتطلبه مثل هذه المعركة .

واذا كان العنصر الاول، أي ارتباط مصيرنا بقضية فلسطين ، قد لفت نظرنا أكثر من أي وقت مضى الى طبيعة الصهيونية واسرائيل والامبريالية ، فان تركيز انظارنا على البنى الاجتماعية العربية قد قادنا الى النمط الاجتماعي الذي يجب أن يقوم في الاقطار العربية ونعني به الاشتراكية . هكذا اصبحت المعادلة الاساسية بعد الحرب : المزيد من الاشتراكية يعني المزيد من الاستعداد للحرب والمزيد من فرص النصر ، والعكس صحيح .

السؤال الآن هو : هل يقول كتاب « المقاطعة العربية والقانون الدولي » شيئاً عن هذه المعادلة ؟ كلا، انه لا يفعل ذلك، وان كان يميز بين نوعين من المقاطعة العربية :

أ ــ المقاطعة السلبية .

ب ــ المقاطعة الايجابية .

ويربط المقاطعة الايجابية بنشاط عربي شامل على المستوى الاقتصادي ، نشاط عربي يفترض شيئاً من الوحدة السياسية والكثير من القدرة الاجتماعية على تحقيق اهدافه وجعلها جزءاً من كل اقتصادي عربي شامل .

قبل أن ننتقل الى الحديث عن المقاطعة يطرح نفسه علينا السؤال الذي كثيراً ما يثيره الحقوقيون الغربيون المؤيدون لاسرائيل حول شرعية هذه المقاطعة .

شرعية المقاطعة العربية :

يميز علماء القانون الغربيون بين نوعين من المقاطعة :

أ ــ المقاطعة الزجرية المشروعة .

ب ــ المقاطعة غير الشرعية .

ويضربون مثالاً على المقاطعة المشروعة قرار مجلس الأمة الاميركي بمقاطعة تشيكوسلوفاكيا لسجنها الصحفي الاميركي وليم أوتيس عام ١٩٥١ بتهمة التجسس . ويعرف روسو هذا النوع من المقاطعة المشروعة بأنه «تدبير تقرره منظمة دولية عملاً بشرعتها ، او تدبير تقرره دولة كردة زجرية ضد دولة أخرى ارتكبت تجاهها عملاً غير قانوني »[1]،

اما المقاطعة اللاشرعية فيعرفها روسو بقوله : « إنها تلك التي يقررها افراد من رعايا دولة ضد رعايا دولة أخرى ، او هي

---

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ٢٨ ، التعريف مأخوذ عن :

Charles Rousseau Le Boycottage dans les rapports Internationeaux - Revue Généal de Droit International Public - Janvier - Mars 1958 № 1

تلك التي تلجأ اليها دولة ضد دولة اخرى بطريقة تعسفية دون مبرر قانوني »[1]، ويضرب روسو مثلاً على هذا النوع من المقاطعات اللاشرعية ، او المقاطعة الجرمية ، المقاطعة العربية ضد اسرائيل. ان اعتقال جاسوس اميركي يبرر إذن المقاطعة الاميركية ، أما المقاطعة العربية لاسرائيل فهي غير مبررة ، وتعتبر « جرمية » . لنستعرض الآن الاعمال التي ارتكبتها اسرائيل بحق العرب في فلسطين وخارجها ، لنرى ما اذا كانت المقاطعة العربية مبررة وشرعية :

أ – الهجرة اليهودية : لقد تمت هذه الهجرة دون استشارة السكان المحليين العرب وضد ارادتهم ، وهذا ما يجعلها عملاً عدوانياً غير مشروع ضد شعب فلسطين العربي .

ب – اعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ : عندما اعلنت دولة اسرائيل كان اليهود لا يزالون اقلية في فلسطين ، فالى أية اصول قانونية استندت الاقلية اليهودية في اعلان نفسها دولة في قطر عربي . « ان اعلان دولة اسرائيل من قبل الأقلية اليهودية في ١٥ ايار ١٩٤٨ عمل عار من كل شرعية ، يخالف لمبدأ حرية الشعوب في تقرير مصيرها ، خاصة وان كل تغيير دستوري في بلد ما يتم شرعياً إما بالصيغة التي ينص عليها الدستور الوطني ، وإما ، في غياب مثل هذا النص ، بالاستفتاء العام المعبر عن ارادة الأكثرية ، لا بل ان اعلان الدولة الاسرائيلية يخالف نص وعد بلفور وصك الانتداب ، مع ما يتضمنان من ظلم ومغايرة للقانون الدولي ، اللذين لم ينصا يوماً على نشوء دولة يهودية في فلسطين دون العرب ، ويخالف قرار الامم المتحدة بالتقسيم الذي لم يسمح بنشوء دولة مستقلة يطرد منها العرب »[2] .

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي ، ص ٢٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥

ج - العدوان الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ وحتى اليوم : إن الاعمال اللاشرعية التي سلكها الصهيونيون منذ ١٥ ايار ١٩٤٨ حتى اليوم في فلسطين لاتحصى ، لمن طرد السكان العرب خارج بلادهم الى احتلال اراضيهم وبيوتهم دون تعويض واستغلالها والاستفادة من غلاتها ودخلها ... الى الحروب التي شنتها ضد الدول العربية سنة ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ .. الى المجازر التي ارتكبتها في عدد من القرى المدنية ، الى محو القرى وهدمها برمتها ، الى رفض الانصياع لأي من قرارات الامم المتحدة »(١)

د - مخالفة كيان اسرائيل لقرار التقسيم : لقد تجاوزت اسرائيل قرار التقسيم واحتلت مناطق تدخل ضمن حدود الدول العربية فاحتلت اربع عشرة مدينة وقرية كانت للعرب بموجب هذا القرار ، وبين هذه القرى والمدن مناطق هامة كعكا، والناصرة، واللد ،والرملة.

و - مخالفة اسرائيل لقرارات الأمم المتحدة بالسماح للعرب المطرودين بالعودة إلى أراضيهم : ويترتب على هذه المخالفة نتائج قانونية خطيرة ، لأن قبول اسرائيل في الأمم المتحدة كان مشروطاً بتقيدها بقراراتها، ومع العلم بأن هذا التقيد لم يحصل فان اسرائيل بقيت بدون عقاب .

يقول القانوني روسو ان المقاطعة تكون مشروعة عندما لا تتعارض مع المادة ٤١ من ميثاق الامم المتحدة التي تنص على ان المقاطعة يمكن أن تفرض من دول أعضاء في الهيئة الدولية ضد دولة عضو فيها ايضاً . أليس من حق العرب ان يقاطعوا إذن اسرائيل ويتخذوا عقوبات زجرية بحقها ، وهي التي خالفت نصوص ومواثيق الامم المتحدة والشرع الدولي ؟ ان الحقوقيين الغربيين يقعون في تناقض محرج عندما ينكرون هذا الحق على العرب ، لأن السوابق الدولية وميثاق الامم المتحدة يقرها ، وهذا ما يعطي لهذه المقاطعة شرعيتها القانونية الكاملة .

---

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ٣٦

المقاطعة السلبية:

مرت المقاطعة العربية بثلاث مراحل:

أ — المرحلة الأولى من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٤٥، وقد تجلت في مقاطعة السلع اليهودية المنتجة في فلسطين.

ب — المرحلة الثانية من عام ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩، وقد تبنت جامعة الدول العربية وبعض الدول العربية هذه المقاطعة.

جـ — المرحلة الثالثة من ١٩٥١ حتى اليوم، وهي المقاطعة التي هي موضوع حديثنا هنا، وهي تتجلى في تنظيم المقاطعة واللوائح السوداء.

من الطبيعي أننا لن نتحدث عن المرحلتين الأولى والثانية، بل سنقصر الحديث على المرحلة الثالثة التي تمتد حتى حاضرنا الذي نعيشه.

لقد ابتدأت هذه المرحلة عام ١٩٥١ بتأسيس «مكتب مقاطعة اسرائيل» ومقره دمشق بداية جديدة. اما أهم المبادىء والاحكام التي وضعتها الجامعة العربية ومفوضية المقاطعة ومؤتمراتها فتتلخص فيما يلي:

آ — «إن المقاطعة موجهة ضد اسرائيل فقط، وليس ضد الدول الأخرى، وإذا كانت أحكام المقاطعة تطال الشركات غير الإسرائيلية، فما ذلك إلا بمقدار ما تساعد تلك الشركات على تقوية اسرائيل وشد ساعدها العدواني، أما التعامل البسيط بين دولة أجنبية واسرائيل فلا تعتبره الدول العربية داعياً كافياً للمقاطعة».

ب — «تسعى المقاطعة كلما استطاعت إلى كسب المؤسسات إلى الجانب العربي أكثر مما تسعى إلى اتخاذ التدابير الزجرية ضدها، لذلك تفسح لها المجال دائماً للعودة عن التعامل مع اسرائيل وتسوقها الى ذلك بتقديم عدد كبير من الاغراءات التي تعود بالنفع عليها».

جـ — إن مكاتب المقاطعة تتخذ الحيطة لكي لا تلحق المقاطعة بالدول العربية أي ضرر(١).

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي: ص ٦٥ — ٦٦.

هـــذه هي أهم المبادىء التي تتحكم بالمقاطعة العربية لإسرائيل ، وهي كما يلاحظ المرء :

آ — مائعة وغير محددة . ، إذ ماذا تعني هذه الجمـــلة « وإذا كانت احكام المقاطعة تطال الشركات غير الاسرائيلية ، فمــا ذلك إلا بمقدار ماتساعد تلك الشركات على تقوية اسرائيل وشد ساعدها العدواني ، أما التعامل البسيط بين دولة أجنبية واسرائيل فلا تعتبره الدول العربية داعياً كافياً للمقاطعة ..»؟ ماذا تفهم مبادىء المقاطعة من « تقوية إسرائيل وشد ساعدها العدواني » ، وما هو التعامل البسيط ؟ هل هناك بالنسبة لدولة لها نفس الكيان الاجتماعي والبنية العسكرية كإسرائيل تعامـــل بسيط لايشد ساعدها العدواني ؟

ب — « تسعى المقاطعة كلما استطاعت الى كسب المؤسسات الى الجانب العربي أكثر مما تسعى الى اتخاذ التدابير الزجرية ضدها » . هذه الجملة تدل على أن مبادىء المقاطعة لاتعرف شيئاً عن طبيعـــة الامبريالية . والمبادىء تقول بصراحة أنها تسعى الى كسب المؤسسات كلما استطاعت .

فماذا تعني هذه الـ « كلما استطاعت » . هل استطاعت حقاً أم لا ؟ إن الوضع الاقتصادي في اسرائيل يدل على أنها لم تستطع .

ج — « إن مكاتب المقاطعة تتخذ الحيطة لكي لاتلحق المقاطعـــة بالدول العربية أي ضرر » . هذا المبدأ لايراعي أبداً الطبيعة الامبريالية للرأسمالية المعاصرة التي لاتدعم اسرائيل فقط ، بل تقدم لها كل مبررات ومقومات الوجود اقتصادياً . إن الضرر الذي يجب أن تتخذ الحيطة حتى لايلحق بالدول العربيـــة ، هو في الحقيقة تعبير عن الخوف من الاصطدام برأس المال الأجنبي العامـل في بعض البلدان العربية والذي يتكون الى حد كبير من رأس مال صهيوني . إن المشكلة ليست مشكلة مقاطعة اسرائيل

إلا من ناحية واحدة هي حماية الأسواق العربية من الاقتصاد الصهيوني ، وهذا ما لا يمكن أن يلحق الضرر بإسرائيل بأي شكل من الأشكال نظراً للحقيقة المعروفة وهي أن اسرائيل تعيش اساساً من رؤوس الأموال الغربية ، أو فلنقل من بعض الأرباح التي تجنيهـا رؤوس الأموال هذه من البلدان العربية التي يخشى أن يلحق الضرر بها .

يقول الأستاذ مغيزل مؤلف الكتاب المفيد الذي بين أيدينا في تعريف المقاطعة أنها « عقوبة تفرضها دولة أو مجموعة من الدول على دولة ارتكبت عملاً لا شرعياً ، أو هي تدبير تأديبي أو زجري من دولة ضد دولة أخرى ارتكبت ضدها عملاً منافياً للحق الدولي . أما الغاية من المقاطعة فتتراوح بين الضغط حتى حصول النتيجة أو الحصار حتى سقوط وانهيار الحكم المطلوب معاقبته أو تأديبه »(١) .

إن المقاطعة العربية لإسرائيل ليست حسب هذا التعريف سوى « تدبير تأديبي » ، لذا فهي لاتهدف الى الإسهام في القضاء على اسرائيل ، بل على حماية أسواقنا من بضائعها ، وهذا إجراء تتخذه دول كثيرة لحماية نفسها ضد دول تكون في أحسن وأفضل علاقات الود وحسن الجوار معها ، وهو في طبيعته ليس « عملاً تأديبياً ولا زجرياً » ، بل حساب اقتصادي بحت لاعلاقة له بالحرب والسلام .

ب ـ المقاطعة الايجابية :

تهدف المقاطعة السلبية الى « منع تصدير المنتوجات العربية بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى اسرائيل ، ومنع البلدان العربية من الاستيراد من اسرائيل »(٢) . أما الوجه الإيجابي للمقاطعة فهدف الى « منع رؤوس الأموال من التدفق على اسرائيل واقناع اصحاب رؤوس الأموال المستثمرة هناك منذ زمن بالانسحاب منها »

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ٢٩ .

(٢) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٤٥ .

وتهدف كذلك الى مزاحمة اسرائيل في أسواق صادراتها وخلق الصعوبات في وجه اسرائيل كلما حاولت تأمين المواد التي تحتاج اليها صناعاتها »(١) .

إذا كنا نريد التعرف على مدى تأثير هذا النوع من المقاطعة على الاقتصاد الاسرائيلي ، فلا بد لنا من التعرف ، ولو بصورة عابرة ، على طبيعة الاقتصاد الاسرائيلي .

اسرائيل بلد فقير في موارده الطبيعية ، ولا تتجاوز مساحة أراضيه القابلة للزراعة ٢٥٪ من مجموع مساحته ، منها ٣٥٪ فقط مروية . أما الموارد المعدنية فهي قليلة جداً ، كما أن أهميتها محدودة ، وهي تشمل النحاس والبرومور والفوسفات والاسفلت والكبريت ويبلغ انتاج النفط ٢٠٠,٠٠٠ طن في السنة ، كما يبلغ انتاج الغاز الطبيعي ٧٣ مليون متر مكعب ويستعمل كوقود لمعامل البحر الميت ومعامل أورون للفوسفات . » ويبدو أنه ما لم يتم اكتشاف موارد معدنية جديدة أو وسيلة زهيدة لتحلية مياه البحر ، والأمل ضعيف في اكتشاف أي منها في المستقبل القريب ، فمن المستبعد أن يزداد الانتاج الزراعي والمعدني في اسرائيل زيادة سريعة . وقد فشل الانتاج الزراعي حتى الآن في مسايرة النمو الحاصل في القطاعات الأخرى من الاقتصاد . أضف الى هذا أن نسبة الزيادة في عدد السكان وفي الاستهلاك الفردي للأغذية فاقت الزيادة في الانتاج الزراعي بمعدل ٥٠٪ خلال السنوات الثماني الماضية »(٢).

فضلاً عن ذلك فقد أسهمت سياسة الالتزام بالهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة بزيادة الوضع الاقتصادي إحراجاً ، خاصة وأن الحكومة الاسرائيلية تقدم المساعدات المالية للمهاجرين الجدد حتى يتم توطينهم . هذا الوضع أدى الى حصول

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٤٥ .
(٢) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٤٦ — ١٤٧ .

تضخم نقدي في اسرائيل ، والى عجز كبير في ميزان المدفوعات الاسرائيلي .

ومع هذا فقد تطورت اسرائيل بسرعة بين ١٩٤٨ و ١٩٦٥ فازداد انتاجها الصناعي والزراعي ٣٫٥ مرة مقابل ٣٫٣ مرات زيادة في السكان ، وليس هناك من تفسير لهذه الزيادة سوى استمرار تدفق المساعدات عليها .

والموارد الرئيسية لهذه المساعدات هي « الهبات والقروض الطويلة الأجل من يهود اميركا ، والمعونات والمساعدة الفنية وفائض الأغذية من الحكومة الأميركية ، ومدفوعات التعويضات من عام ١٩٥٨ فصاعداً على شكل بضائع وخدمات من المانية الغربية »(١) . هذه العناصر الثلاثة تمتنع على الضغط العربي ولا تخضع للمنطق الاقتصادي ، لذا فإن نجاح المقاطعة العربية فيها ليس محتملاً ، ولكنه مؤكد في العناصر الباقية التي يمكن تصنيفها الى قسمين :

آ — الاستثمارات الأجنبية .

ب — القروض الطويلة الأجل من مؤسسات دولية .

ذلك لأن الاستثمارات الأجنبية ترتبط ، الى جانب محتواها السياسي ، بالحسنات الوضعية والطبيعية الخاصة التي تقدمها له السوق التي تستثمر فيها . فأي السوقين تقدم حسنات أفضل للاستثمارات الأجنبية ، السوق العربية أم الاسرائيلية؟ رأينا أن لإسرائيل حسنات طبيعية قليلة وسوقها محدودة ، كما يدل اقتصادها بسبب التزامات الحكومة السياسية وتراخي سياستها المالية على خطوط تضخمية صميمة . أما بالنسبة لوضع عملاتها الأجنبية فهو يزداد سوءاً سنة بعد أخرى نظراً لنسبة مدفوعات الديون الأجنبية والفوائد الى مجموع ما يدخل من العملات الأجنبية ، فضلاً عن ذلك فان الأسواق الجغرافية الطبيعية للمنتوجات الاسرائيلية هي البلدان العربية المجاورة التي تمنع التبادل

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي ؛ ص ١٤٨ .

التجاري مع اسرائيل ، » ويتضح مما تقدم ان الاستثمار الاجنبي في اسرائيل لا يحتمل ان يكون مغريا إلا في بضع حالات حيث يكون الطلب على سلعة معينة او خدمة خاصة في اسرائيل أكثر منه في البلدان العربية ، وتزداد قوة هذه الحجة عندما يتأمل المستثمر الاجنبي الفوائد التي تجنيها الأموال الموظفة في العالم العربي مقابل الإمكانات المحصورة في اسرائيل »(١) ، وقد حاولت اسرائيل التغلب على المساوىء الرئيسية التي تجابه الاستثمار المالي الاجنبي بأن أصدرت قانوناً لتشجيع استثمار الأموال في ١٩٥٧ — ١٩٥٨ ، ولكن لا الإعفاءات التفصيلية من مختلف الرسوم والضرائب، ولا النسبة المنخفضة من ضريبة الدخل تعوض عن المساوىء التي تواجه الاستثمارات الاجنبية في اسرائيل . من الجهة الأخرى « تقدم ثلاثة بلدان عربية فقط هي الكويت ولبنان والاردن فوائد وضعية وقانونية توازي ، لا بل تفوق، تلك التي ينص عليها قانون تشجيع استثمار الأموال في اسرائيل حتى بعد تعديله »(٢) .

أما بالنسبة للقروض الطويلة الأجل ، فان المؤسسات المالية الدولية التي تمنح مثل هذه القروض ، تظهر حيال اسرائيل تساهلاً أكثر بكثير مما تبديه تجاه البلدان النامية . وعلى الرغم من أن أحكام صندوق النقد الدولي تنص على أن البلد الذي يواجه استهلاكاً في الديون الأجنبية ومدفوعات من الفائدة تزيد على ١٥٪ من طاقته على كسب العملة الأجنبية ، يكون في وضع خطير للغاية ، وعلى الرغم من ان اسرائيل قد تجاوزت هذه النسبة بكثير ، وهي أكثر بلد في العالم غراقاً في الديون ، فان القروض طويلة الأجل لا زالت تتدفق عليها .

نظراً لكل هذه الحقائق السابق

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٥٤

(٢) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٥٦

ذكرها يمكننا أن نقول أن فرص المستثمرين الأجانب في اسرائيل بالمقارنة مع البلدان العربية يجب أن تعتمد أولاً وآخراً على حجم المستوردات وفرص استيراد الصناعات البديلة ، وبناء على ذلك تبدو الفرص أوسع بكثير في البلدان العربية منها في اسرائيل [١] . والتدليل على ذلك نورد مقارنة بين مستوردات بلدين عربيين هما لبنان والكويت ومستوردات اسرائيل [٢] ، فنرى أن واردات البلدين تبلغ ٨٣٧ مليون دولار سنوياً ، بينما تبلغ واردات اسرائيل ٨٢٣ر٢ مليون دولار في السنة ، مع العلم بأن واردات هذين البلدين لا تمثل أكثر من ١٥٪ من مجموع مستوردات بلدان الجامعة العربية الملتزمة بالمقاطعة العربية . وتتجلى فوائد السوق العربية بالنسبة لرؤوس الأموال الغربية من مقارنة الصادرات الأميركية الى البلاد العربية والى اسرائيل عام ١٩٦٤ ، هذه الصادرات التي بلغت قيمتها ٦٠٠ مليون دولار ، بينما لم تصدر أميركا الى اسرائيل في نفس السنة الا ما قيمته ٢٠٧ر٧ مليون دولار .

فضلاً عن ذلك نجد أن للاستثمار الأجنبي في البلدان العربية فوائد أخرى عند المقارنة بالمساوىء التي ترافق الاستثمار في اسرائيل .. وفي السنوات العشر المقبلة يتوقع أن تستمر الأسواق العربية في النمو بسرعة تبعاً لنمو عوائد النفط . وعلى العكس من ذلك فان نمو الطلب وتزايده في اسرائيل سيستمران في الاعتماد على المساعدات الخارجية [٣] .

ان السوق العربية وطبيعة العلاقات الاقتصادية الدولية تمكنان العرب من الاستفادة الى أقصى حد من الاقتصاد كأداة فعالة في الحرب ضد الصهيونية ولكن اذا احسن استخدامها فقط .

(١) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٥٩ .
(٢) يبلغ تعداد سكان هذين البلدين العربيين ٠٠٠ر٦٠٠ر٢ نسمة ، أي ما يعادل سكان اسرائيل .
(٣) المقاطعة العربية والقانون الدولي : ص ١٦١ .

فيزياء عالم الصغائر (١)

تأليف : شولكين

ترجمة : بسّام المعصراني

عرض : ظافر عبد الواحد

ذرة الهيدروجين :

تتألف ذرة الهيدروجين من النواة المشحونة إيجاباً (الأويل) ومن الكهرب الذي يدور حولها والذي شحنته تساوي شحنة النواة بالقيمة وتخالفها بالإشارة . فذرة الهيدروجين في جملتهــا معتدلة كهربائياً . ويتجاذب هذان الجسيمان اللذان لهما شحنتان مختلفتان بالإشارة ، بفضل القوة الكهربائية . ولهذا لا يبتعد الكهرب عن النواة ، بل يدور حولها كما تدور الأرض حول الشمس منجذبة اليها بقوة الجاذبية .

الدوتيريوم ، التريتيوم ، الاُويم :

الدوتيريوم هو الهيدروجين الثقيل . والتريتيوم هو نظيره الاصطناعي . وتتألف

(١) مراجعة د . مكي الحسني . منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٨

نواة كل منهما من أويل وأويين. والأويم كهرب معتدل.

الكهرم، الأويل المضاد، الأويم المضاد، الهيدروجين المضاد:

الكهرم هو كهرب ذو شحنة موجبة. والأويل المضاد هو أويل ذو شحنة سلبية. وعند التقاء أويل بأويل مضاد يتحولان الى أويم وأويم مضاد. ولو فرضنا أن هذه الجسيمات المضادة معزولة في عالم مضاد، فمن غير الصعب أن نتخيل ذرات مضادة مختلفة، مثلاً هيدروجين مضاد يتألف من أويل مضاد يدور حول كهرم.

النوى الثقيلة:

في الطبيعة نوعان من نوى الهليوم: نواه الهليوم ٣ التي تحتوي عدا الأويل على أويم واحد ايضاً، ونواة الهليوم ٤ التي تتألف من أويلين وأويين.

القوى النووية:

بالرغم من التقدم الهائل في البحث التجريبي للقوى النووية، لايزال الفيزيائيون بعيدين جداً عن فهم منشئها. ومشكلة القوى النووية التي بذل لحلها في العالم كله الكثير من الجهد والمعدات والنقود، لم تحل نهائياً حتى الآن.

العمليات الافتراضية وبنية النوكلون:

النوكلون هو أويل وأويم. ويرى مؤلف هذا الكتاب أن الفيزياء توغلت في أعماق النوكلون، ولكنها لم تصل الى قاعه. ويمكن بعد عدة سنين التحدث عن النوكلون حديثاً مفصلاً.

التأثيرات المتبادلة القوية والكهرطيسية والضعيفة:

يطلق على التأثيرات المتبادلة التي تنشأ بين النوكلونات، باشتراك الميزونات پي، اسم التأثيرات المتبادلة القوية. وميزون پي يتشكل عند اندثار الأويل والأويل المضاد. وإندثار زوج الكهرب ـ الكهرم مثل على التأثير المتبادل الكهرطيسي.

وإذا أخذنا أقصر عمر للجسيمات التي تخضع للتفكك نتيجة للتأثيرات المتبادلة الضعيفة ($١٠^{-١٠}$ ثانية) فاننا نجد أنه أكبر من الزمن المميز للتأثيرات المتبادلة القويـة ($١٠^{-٢٣}$) بـ ($١٠^{١٣}$) مرة

الزوجية ، انحفاظها وعدم انحفاظها:

لمعرفة معنى الزوجية لابد من تعريف السبين . فالسبين هو العزم الخاص لكمية حركة الجسيم .

لنتصور أمامنا ، الآن ، نواة متناظرة كرويا ، ولها سبين ما . فمن أي القطبين تفضل جسيمات غاما الانطلاق ؟ قد يقال : هناك اتجاه السبين ، وربما فضلت الجسيمات الخروج باتجاهه . لكننا نحن الذين نعرّف السبين واتجاهه . فتعالوا ، في غفلة من النواة ، نغير جملة الإحداثيات ونعرف السبين لا في الجملة اليمينية وإنما في الجملة اليسارية . عندئذ يصبح اتجـاه السبين معاكساً . فأنى للنواة أن تعرف نوايانا؟ إنها إذن لا تعرف اتجاه السبين الذي يعتمد على اختيارنا ، وتطلق جسيمات غاما بنفس الاحتمال من كلا القطبين . وهـذا هو ما يحدث في الحقيقة ، فالنواة أثناء إطلاقها جسيمات غاما لا تعرف أين هي الجهـة اليمنى ، وأين اليسرى .. كان هذا القانون يعتبر قطعياً من أجل جميع التـأثيرات القوية والكهرطيسية والضعيفة . وكان يعرف بقانون انحفاظ الزوجية .

لقد وضع العالمان الصينيان (لي تسون داو) و (يانغ تشن نين) هـذا القانون موضع الشك واقترحا عـدة تجارب بغية التحقق تجريبياً من صحته .

فللتحقق مما اذا كان نفس العدد من الكهارب ينطلق من كل قطب عند تفكك أشعة بيتا ـ وهو العملية النموذجية للتأثرات المتبادلة الضعيفة ـ صفت نوى الكوبالت ٦٠ بحيث تكون سبيناتها باتجاه واحد وقيست كمية جسيمات بيتا المنطلقة باتجاه السبين وبالاتجاه المعاكس . وقد اكتشف في هذه التجارب أن الكهارب تنطلق أكثرما تنطلق الى

الخلف في الجملة اليمينية ، أي في الاتجاه المعاكس لاتجاه السين في جملة الاحداثيات هذه .

إن الطبيعة ، في التأثيرات المتبادلة الضعيفة ، تفهم جيداً أين اليمين وأين اليسار . لقد أحدث هذا الاكتشاف ـ الذي لم يفهمه الفيزيائيون حتى الآن ـ أثراً مذهلا في العالم العلمي . ولقد اكتشف عدم انحفاظ الزوجية ليس فقط في تفكك بيتا ، وانما بصورة عامة في جميع التأثيرات المتبادلة الضعيفة .

استقطاب الخلاء :

استقطاب الخلاء هو ارتفاع الكهرب لبعض الوقت من سوية الطاقة السالبة الى السوية الموجبة .

فائز الجسيمات الأساسية التي لها مكان خاص في بنية المادة :

في هذا الفصل يضيف المؤلف بعض خصائص الضوءون ، والليبتونات أي الجسيمات الخفيفة وهي : النيترينو والكهرب والميزون ميو السالب والجسيمات المضادة لها ، والنيترينو هو أخف الليبتونات .

الميوونات :

تنشأ الميوونات من تفكك ميزونات بي .

* * *

وبعد أن يثير المؤلف اهتمام القارىء بالجسيمات الغريبة ، يعطيه فرصة للاستراحة ، اذ يكرس بضعة فصول تالية كظواهر أبسط ، حيث يتعرض لخواص الذرات والنوى باعتبارها حلا مؤلفة من جسيمات عديدة . وهذا هو بالذات الشكل الذي نصادفها فيه عملياً . ولا يصادف الجسيمات المنفصلة الا الفيزيائيون .

الفائز الخامس للجسيمات الأساسية :

اذا لم تحسب الميزونات القصيرة العمر ، مثل جسيم أوميغا المعتدل وغيره ، فان العدد الكلي للجسيمات الأساسية يبلغ الثلاثين .

* * *

ويخصص المؤلف فصلين لبحث السبين النظيري والغرابة ، وهما عددان كوانتيان يمكن أن تختلف بها الجسيمات بعضها عن بعض .

ميزونات K :

كانت مجموعة باحثي بريستول (انكلترا) أول من اكتشف عام ١٩٤٩ ميزون K المشحون إيجاباً .

الهيبرونات Hyperons :

يقوم الفيزيائي السوفييتي العضو المراسل للمجمع العلمي السوفييتي ماركوف ، بوضع نظرية تكون الهيبرونات بوجها حالات مثارة للنوكلونات .

النوى المزيدة :

ويختتم المؤلف الكتاب بوصف النوى المزيدة ، التي هي نتاج الأبحاث العلمية للنصف الثاني من القرن العشرين .

* * *

لقد حاول المؤلف، وهو عضو مراسل في المجمع العلمي السوفييتي ، أن يقدم للقارىء المثقف غير المختص آخر نتائج أبحاث الفيزياء الحديثة . والمترجم ماجستير في الفيزياء من جامعة موسكو كما أن المراجع دكتور في الفيزياء من جامعة موسكو . وبذلك توفر على ترجمة الكتاب اختصاصيان بالفيزياء الحديثة ، مطلعان اطلاعاً وافياً على اللغة الروسية ومصطلحاتها العلمية ، مما مكن المترجم من الدقة في الترجمة ، ومكن المراجع من الانتباه إلى بعض الالتباسات التي وقع فيها المؤلف نتيجة لإغراقه في التبسيط .

في معرض التعبئة

غازي الخالدي

« أقيم في مدينة حلب بسورية خلال شهر نيسان (ابريل) الماضي معرض كبير للفنانين السوريين يحمل عنوان : معرض التعبئة » .

منذ هزة حزيران والفن التشكيلي يواكب بانتظام المواقف والاحـداث القومية مسلطاً الأضواء على الانسان العربي في كفاحه الطويل من اجل الارض والكرامة العربية . فابان العدوان اقيم المعرض المكشوف في شوارع دمشق ، كان الفنانون يعلقون لوحاتهم في الطريق في الوقت الذي كان يسمع فيـه دوي القنابل في كل مكان ، وما ان حسرت غيمة العدوان السوداء حتى بدأ الفنانون يستجمعون أعصابهم محاولين فهم النكسة بأبعادها متمثلين جوهر القضية ، فكان معرض العدوان . وقد جاء هذا المعرض كسجل لموقف العدو والتآمر الاستعماري على الانسان العربي ، ولم تمض مدة طويلة حتى بدأ الكفاح يأخذ شكلاً آخر ،

وكان الفنانون خير من عبر عن موقف الشعب العربي من الصمود وطرح شعار الكفاح المسلح على المدى الطويل فكان معرض (الصمود والكفاح المسلح) الذي اقيم برعاية وزارة الاعلام ، اما المعارض الاولى فقد كانت برعاية وزارة الثقافة . واليوم نحن امام معرض جديد هو معرض (التعبئة) الذي يقام حالياً في حلب بديلاً عن معرض الربيع الذي تقيمه وزارة الثقافة في مثل هذا الوقت .

ان ظاهرة هـــذا النشاط الفني على مستوى القضية امر هام جداً جدير بالدرس ، فالفن لم يعد ترفاً ولا هواية ولا تجربة ذاتية تترجم احاسيس فردية بل اصبح جزءاً لايتجزأ من الوجود العربي . وهذه الظاهرة لها وجهان : الوجه الاول هو الفنان نفسه ، والوجه الثاني هو الفن .

الفنان ، ما دوره ؟ وما موقفه ؟ وكيف يفهم وكيف يفسر ؟ وما هي وسائله ؟

والفن ، ماعناصره ومقوماته ونتائجه وما مدى استجابة الجمهور له ؟ .

يتحدد دور الفنان بمدى وعيه ومدى ادراكه للمسؤولية وفهمه للموقف القومي الذي يعيشه البلد . فكثيرون من الفنانين ظنوا ان دور الفنان في المعركة هو ان يرسم جندياً وبندقية ليلهب الحماسة في النفوس ، أو ان يرسم العدو على شكل مشوه يثير الاشمئزاز والقرف ظاناً ان هذه الصورة التي يعطيها عن العدو تكفي لاذكاء روح البطولة في نفوس الناس . والحقيقة ان دور الفنان غير هذا تماماً . فالمهمة الاساسية الملقاة على عاتق الفنان هي ادراكه العميق لجوهر القضية ، وعندما يدرك الفنان هذا الجوهر فان مواضيعه ستتحول تحولاً جذرياً من المفاهيم السطحية الى المفاهيم العلمية الواقعية . ولقد وقع كثير من الفنانين في هذا الخطأ واساؤوا ،وهم في غمرة الحماسة ودون ان يقصـــدوا ذلك ، الى جوهر القضية كما حصل في المعرض المكشوف ، حيث عرضت بعض اللوحات التي كانت مسخاً مشوهاً لمفهوم المعركة والتقليـــل من اهمية العدو .

وعلى الفنان ان يتخذ موقفاً صريحاً وواضحاً من قضاياه القومية ، وبالطبع هذا الموقف هو خوض المعركة الى جانب الجندي ولكن بوسيلته الخاصة به وهي اللون او الكتلة او اللحن ، وهو ليس مخيراً كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة؛ فاما ان يحارب واما ان يموت . وموت الفنان يعني توقفه عن الانتاج .

كيف تترجم القضية القومية في الفن، وكيف تسمى اللوحة هادفة وذات رسالة قومية ؟

ان استعمال بعض الفنانين وحدات مستوحاة من المعركة كالطائرة والمدفع والدبابة على اساس انها وحدات تشكيلية تساعد في جمع عناصر التكوين في اللوحة قد اوقعهم في الصيغة الاعلانية التي ترتبط بزمن معين ومحدود ، بحيث تفقد قيمتها الفنية بزوال الحادث المسبب . وهذا النوع من اللوحات اقرب الى الاعلانات منه الى اللوحات القيمة التي لهـــا صفة الديمومة . وفي تاريخ الفن لوحات كثيرة عالجت القضايا القومية مثل لوحة (الحرية تقود الشعب) لدولا كروا ولوحات غويا (الاعدام) ولوحات بيكاسو (الحرب الاهلية الاسبانية) ولوحات (الغريكو) .

كل هـــذه اللوحات امتازت بكونها استوعبت ابعاد القضية القومية من وجهة نظر عالمية ، والحقيقة ان اللوحة لا تصل الى مستوى عالمي الا بقدر شمولها وبعد الفهم النظري الذي فيها . فمشكلة الحرية واحدة في كل انحاء العالم ، ومشكلة حق تقرير المصير واغتصاب الارض والعدوان والدفاع عن الكرامة ، كل هذه القضايا تحدث كل يوم وفي كل مكان .

والمهم بالنسبة للعمل الفني ان يتجاوز حدود التفاصيل المحلية ويعطي رموزاً واتجاهات غير مباشرة ليكون لوحـــة جيدة بعيدة عن صفة الاعلان اذ ان ؛ الاعلان تنتهي مهمته بانتهاء السبب الذي وجد من اجله . اما اللوحة الجيدة فانها تعيش لانها اشمل وأعم واعمق .

وفي معرض التعبئة والمعارض التي سبقته توصل بعض الفنانين في سورية الى حلول ونتائج معقولة وذات مستوى جيد

الى حد ما فيما يتعلق بالمواضيع القومية. ولعل تجربة المعارض المستمرة قدافادتهم وكشفت لهم اخطاء اللوحات الاعلانية التي تاخذالموضوع بمعناه السطحي وبظاهره. فمثلا اسعد عرابي ركز في احدى لوحاته (القدس بالاحمر) على الناحية الجمالية في القدس بحيث يثير العاطفة الانسانية المطلقة تجاه هذه المدينة الجميلة ذات الوحدات الزخرفية المتناغمة ، ولم يرسم بندقية ، ولا دبابة ، ولا طائرة . أما في لوحته (رياح اسرائيل) فقد لجأ الى الاستفادة من امكانيات الالوان التقنية فأصاب نجاحات مختلفة مع تشخيص فيه تحطيم كبير للنسب يوحي بعاصفة تحمل غباراً شريراً مؤذياً لمواطنين صامدين يواجهونها بثبات ورجولة . اما ذراق السباعي فقدقدم باسلوبه المبسط المعروف لوحة (ذكريات لاجئة) ، وهي لوحة اعتمد فيها على الاسلوب التجريدي بالوان بنية ورمادية، اما فاتح المدرس فمن خلال اسلوبه المعروف في تقسيم المساحة الى مربعات حمراء قانية وضع نماذج بشرية في حركات منتظمة وعمودية أوحت بوجود البطل الشهيد الذي هو رمز الفداء. والشهيد الذي رسمه فاتح لم يكن مستلقياً على ظهره او معلقاً على خشبة ولم يكن صدره ينزف دماً بل كان مجرد انسان عريض يحمل باحدى يديه سلاحه الابيض مستفيداً من حركته الافقية بأن خلق جواً تشكيلياً متكاملا .

اما عبدالقادر ارناؤوط فقد لجأ للرمز وقدم لوحتين تجريديتين على الطريقة الدادائية التي تعتمد على الملصقات (الكولاج) ، وهذه الملصقات هي من الجيش المحروق والتي تعبر مع بقع الدم الحمراء اصدق تعبير عن نتائج الحرب ومأساتها ،وقد كان موفقاً في طريقة لصق هذه النماذج وطريقة حرقها بحيث كانت درامية جداً . والتعبير عند ارناؤوط غير مباشر لذلك تبقى مثل هذه الاعمال ذات صفة ثابتة ..!

أما غياث الاخرس فكعادته في استخدامه لكل امكانات الحفر العديدة، كان موفقاً ايضاً في لوحته (قصيدة الى

شاغر توري) استعمل تأثير الدانتيل وبعض الامشة الدقيقة وبعض الكتابات الصغيرة كوحدات اساسية في التشكيل الفني بالاضافة الى شفافيتها مع بعضها وتلوينها باساوب الحفر المعروف .

أما الياس زيات فقد اخذ الجانب السلبي من المعركة وهو الفاجعة وركز باساوبه القديم في التشخيص على مجموعة بشرية بشكل مفجع تبكي الأرض المغتصبة . وابرز مافي هذه اللوحة هو الحس الانساني الصادق نتيجة المعاناة الحقيقية لمعنى النكبة .

ونذير نبعة قدم لوحة واحدة من وحي البطولة العربيـة بمعناها الفردي واستخدم لأجل هذا السلاح الأبيض ، العربي القديم بالوانه الترابية المعروفة وبتقنيته الخشنة المتميزة وهذه اللوحة توحي بمعنى التعبئة على الطريقة العربية .

حول الدعوة الى

نظرة جديدة الى القضية الفلسطينية

عرض وتلخيص :

هشام الدجاني

نشرت مجلة الكاتب[1] في عدد نيسان دراسة موضوعية شاملة تتسم بنظرة عميقة وجديدة الى القضية الفلسطينية. وعنوان الدراسة التي كتبها الدكتور جمال حمدان هو : « حول الدعوة الى نظرة جديدة الى القضية الفلسطينية ». ولعل « نظرة الدكتور حمدان الجديدة » هذه واحدة من النظرات التي وعت درس النكسة أو « لنقل » استلزمها درس النكسة القاسي. وهذه الدراسة في الواقع هي مناقشة للتساؤلات الكثيرة والاتجاهات الكثيرة المتنافرة التي نجمت نتيجة النكسة ووقعها الرهيب على العقل العربي. وهي بعد ، محاولة سليمة لرسم طريق المستقبل الصحيح .

يبدأ الكاتب مقاله بطرح عديد من

(١) الكاتب – القاهرة – العدد ٨٥ – نيسان (ابريل) ١٩٦٨

التساؤلات التي تبدو متناقضة ومتنافرة .
من هذه الأسئلة التي ينطلق منها الكاتب في بحثه ما يلي :

● هل تكسب القضية بالسلاح في المعركة ام بالدعاية بين الرأي العام العالمي؟

● هل معركتنا مع اسرائيل وحدها أم هي معها، ومع من هم خلفها ؟

● هل نتحدث مع العالم الخارجي بلغة القوة، أم بلغة السلام كما يفعل العدو خداعاً؟

● هل ننظر الى القضية على انها أخطر شيء في حياة الأمة ، ام على أنها جانب جزئي من حياتنا لا ينبغي أن نقصر كل حياتنا عليه ؟

● هل عامل الوقت في المدى القصير والمدى الطويل معنا أم علينا ؟

● هل المعركة معركة فلسطين والفلسطينيين، أم معركة الشعب العربي ؟

● هل الوحدة طريق الى فلسطين، أم أن فلسطين هي الطريق الى الوحدة؟

● هل ننتظر حلاً سريعاً ناجزاً، أم طويلاً ومؤجلاً للقضية ؟

● هل مفتاح الحل في الحرب النظامية، أم الشعبية ؟

● في حالة الحرب النظامية أهي الحرب الخاطفة أم الحرب المطولة ؟

● هل هو الحل السياسي ، أم هو الحل العسكري ؟

مع طرح هذه الأسئلة ، التي هي مطروحة فعلاً في الوطن العربي، ومناقشة الردود المحتملة عليها يصل الكاتب الى الاجابات السليمة والى تحديد معالم الطريق الصحيح نحو المستقبل .

والكاتب يرى أنه قد يكون من السهل احياناً الاجابة على تلك الأسئلة بالحلول الوسط التي يثبت التطبيق الجاد افلاسها ، وأسهل من ذلك الانحراف نحو هاوية الانهزامية والاستسلام . أما الصعب حقاً، مع مرارة النكسة ومحاذيرها وحساسياتها ، فهو التقييم العلمي الدقيق وعلى مستوى العمل الميداني لكل من هذه الأقطاب المتقابلة .

والصراحة النزيهة الشجاعة هي وحدها

التي تضمن أمانة الرأي . وهنا يجب أن نضع خطاً فاصلاً كالسيف بين المراجعة والتراجع ، والا نسمح للمرونة في الفكر والعمل أن تنزلق الى ميوعة او تنازل .

ويميز الكاتب في بحثه بين طبقات ومستويات من القضية لكل منها امكانات محددة للتجديد والاجتهاد (اي للنظر فيها نظرة جديدة) . وهذه المستويات التي يميزها الكاتب هي **الاستراتيجية العظمى والاستراتيجية والتكتيك** . ونستعرض الآن هذه المستويات الثلاث التي وضعها الكاتب للقضية .

الاستراتيجية العظمى

الاستراتيجية العظمى ، بكلمة ، هي أن لابد من ذهاب اسرائيل مهما بدا هذا الهدف اليوم بعيداً . فوجود اسرائيل استنزاف دائم مباشر وغير مباشر لاقتصاديات العرب ، ووجودها عبء ثقيل يشل انطلاقة العرب نحو التقدم . ووجودها ايضاً أفقد العرب حتى حرية الحركة داخل دولهم ذاتها كما كشفت عن ذلك مثلاً تجربة تحويل مياه الأردن .

ودرس النكسة قد حسم السؤال القديم الحائر : أيهما أسبق الوحدة أم فلسطين ؟ إن الكل يؤمن منطقياً أن الوحدة طريق طبيعي الى فلسطين، ولكن الوحدة باتت بعد النكسة واحدة من تلك العقائد والقناعات الأساسية والضرورات البقائية التي لا يعرف أحد مع ذلك هل تتحقق وكيف تتحقق ، والسبب هو الوجود الاسرائيلي . لقد أصبحنا بفعل هذا الوجود – نحقق أملاً بأمل آخر والنتيجة بطبيعة الحال هي نقطة الصفر دوما . فكلما تقدمنا خطوة الى الوحدة تحركت اسرائيل لتضربها ، وفي نفس الوقت فنحن بغير الوحدة لم نستطع ان نصفي الوجود الاسرائيلي . باختصار ، ان الوجود الاسرائيلي هو أكبر عامل في اضطراب حياة العرب وعدم استقرار مستقبلهم .

من هنا تتكشف حقيقة جذرية أخرى حسمتها هي الأخرى تجربة

النكسة : ان قضية فلسطين لاتخص الفلسطينيين وحدهم . هم حقاً ضحيتها الأولى ، ولكن ليس الأخيرة. والخطر يهدد الجميع والقضية عربية بقدر ماهي فلسطينية .

لقد اصبحت فلسطين بعداً اساسياً في وجود مصير كل دولة عربية . اصبحت «جزءاً» من سورية و«جزءاً» من مصر ، ومن الأردن والعراق .. الخ . ولهذا التحديد النظري قيمته التطبيقية الكبرى . نقول هذا لأن بعض الانهزاميين اراد بالقول إن القضية فلسطينية اولا وعربية ثانياً ان يلقي عبء التحرير على الفلسطينيين لكي ينفض يديه ويتخلص من المسؤولية . ومن الناحية الأخرى فان القول انها قضية عربية اولاً وفلسطينية ثانياً قد يعزل الفلسطينيين عن الكفاح او عن طليعته ، او يبث روح التواكل او السلبية ويسيء الى النضال والقضية دعائياً ودولياً .

اما الموقف السليم فهو تزاوج العمل النضالي الفلسطيني العربي .

ثم نعود ـ من وجهة الاستراتيجية العظمى ـ لنقول ان الوطن العربي في خطر ما دامت اسرائيل باقية . مثال ذلك مايمكن أن نسميه «الدورة التوسعية» في كيان اسرائيل . وتوضح تجربة النكسة الميكانيكية التي تعمل بها تلك الدورة التوسعية . ان اسرائيل تستجلب الهجرة لتملأ الأرض المغتصبة ، حتى اذا لم تعد هذه قادرة على استيعاب وامتصاص الهجرة توسعت اسرائيل اقليمياً بالعدوان ، ثم تعود فتستجلب مزيداً من الهجرة لتملأ التوسع الجديد . هذه الحلقة المفرغة ستظل تدور مابين حرب وهجرة ، وهجرة وحرب ، مابقيت اسرائيل .

كذلك فان النظرة التي ترى عامل الوقت في صفنا ، لايمكن أن تصح أو تمضي هكذا بلا قيود ولا تحفظات . لقد كانت الدعوة الى الحل السريع الباتر للقضية هي السائدة قبل النكسة ، ولعل العكس الآن هو الرائج ، ولعله

أيضاً الأصح والأسلم . الوقت معنا في المدى القصير نعم ، أما في المدى الطويل فـلا على الأرجح . **فالمستقبل يحمل احتمالات واخطاراً لا سبيل الى التنبؤ بها ، واذا عجزنا عن اجتثاث السرطان الآن فكيف بعد أن يستشري وينشر اخطبوطه ويعمق جذوره،وأخيراًبعد أن ينمي لنفسه انياباً ذرية ؟**

من واجبنا اذن ان ننظر الى الحقائق المرة بصراحة وموضوعية . اننا مثلا كثيراً ما نطمئن انفسنا بان الهجرة اليهودية الى اسرائيل في خطر واهتزاز ، وبأن المجتمع الاسرائيلي مفكك اجتماعياً الى حد التفتت وربما الانهيار الوشيك ، وبأن الاقتصاد الاسرائيلي المصطنع سوف يصاب بتصلب الشرايين . ولسنا نشك في أن هذه سلبيات حقيقية في الكيان الاسرائيلي ، وانها عوامل ضعف فيه ، ولكننا لانخدم قضيتنا بواقعية أو بأمانة اذا نحن قصرنا نظرتنا عند حدود الحاضر المسطح . فلا يجوز مثلاً ان ننسى أن رقعـة فلسطين كانت تحمل قدراً من السكان العرب لايقل كثيراً عما أقحم عليها من الغزاة المحتلين دون أن يعجز اقتصادها عن تحملهم . أما عن تركيب المجتمع الاسرائيلي فعامل الزمن كفيل بأن يصحح كثيراً أو قليلاً من أخطائه الأساسية . ان العبرية تتسع رقعتها باطراد بين سكان اسرائيل ، وفي جيل أو جيل قد تصبح اللغة المشتركة . والى جانب الدين ثمة مايربط بين شراذم المجتمع الاسرائيلي كعامل الخوف من الخطر المحدق، وعامل « الحقد » العنصري الأسود .

والخلاصة ان عامل الزمن في المدى البعيد ليس في صالح العرب . ولسنا نتنبى بهذا نظرة تشاؤمية ، ولكن علينا ألا نستكين الى سلاح ذي حدين على الأقل . ومن الخير ان ندرك انه اذا كان لابد ـ ولابد ـ من ذهاب اسرائيل فكلما كان ذلك مبكراً كان خيراً وأجدى .

الاستراتيجية :

اذابة اسرائيل أم ازالتها ؟ أعني ، والكلام عن المدى البعيد ، الحل السياسي أم العسكري ؟ والســؤال ـ في ظل النكسة وبالرغم منها ـ ليس تجريدياً بحتاً . فقد تكاثرت في الخارج أخيراً الاحاديث والمشروعات عن « التسوية النهائية » سواء من الأعداء أو من المحايدين . ونحن متهمون دائماً بأننا لا نملك حلاً أو رؤيا لحل واقعي عملي بناء واضح النوايا والضمانات نقدمه ونطرحه على العالم من وجهة نظرنا يضمن ـ كما يقال ـ مصير المستعمرين ويحدد وضعهم في البقاء اذا ارادوه .

بمثل هذا البرنامج نفعل كما فعلت الجزائر بالنسبة الى المستوطنين ، ونكسب مثلها الرأي العام . فهل التسوية السلمية ممكنة حقاً ؟

يجب ألا ننسى ابتداءً ان أحداً من الأصدقاء أو المحايدين ، فضلاً عن الاعداء ، لا يقول أو يقبـــل بذهاب اسرائيل . كذلك لا ننسى أن للقضية جانبها الدولي بالاضافة الى الجانب الاقليمي . ومن الجلي أن كل هزيمة عسكرية لنا تغلب لنا الجانب الدولي على الجانب الاقليمي ، وتخرج القضية ومصيرها أكثر فأكثر من ايدينــا . وتصبح تحت رحمة الدول الكبرى الى الحد الذي يفقدنا زمامها ويزيد من فرص فرض التسوية السياسية علينا من الخارج وتضعف من فرصنا نحن لفرض الحل العسكري .

والحديث عن التسوية السلمية يدور غالباً حول قطبين متعارضين لا التقاء بينهما . الأول يبقي على اسرائيل كدولة بقدر أو بآخر ، والثاني يبقى فقط على اليهود بقدر أو بآخر . الأول يبدأ عادة من اعادة اللاجئين العرب من ناحية ثم ضمان حدود اسرائيل دولياً من ناحية أخرى . والشرط الضمني هو اعتراف العرب قانونياً باسرائيل بما يستتبع ذلك من انهاء المقاطعة وحالة الحرب واقرار حق المرور في القناة .. الخ .. ولعل هذا

الحل هو ما في رأس بعض الدول الكبرى من الأعداء او من المحايدين . الاعداء على اساس خطوط الهدنة (حدود ما قبل ٥ حزيران ١٩٦٧) وربما بعض الاضافات والمحايدون على اساس خطوط التقسيم على الارجح . والشيء المشترك بينهما رفض العرب القاطع لها . فعلى ضوء الاستراتيجية العظمى لامكان « لدولة » اسرائيل على أي شكل ومهما كانت التبريرات .

أما عن النوع الثاني من الحل السلمي فهو عادة اقتراح يتساءل عما اذا كان من المقبول ان يعلن زوال اسرائيل كدولة مع بقاء سكانها او جزء من سكانها كيهود ، لا كاسرائيليين ، في ظل فلسطين عربية محددة . وقد تبنت منظمة التحرير مؤخراً دعوة من هذا الطراز .

وهناك بعد هذا نوع من الحلول الغامضة ، ربما عمداً . من هذه اقتراح قديم بدولة ثنائية بين العرب واليهود ، والمثل الذي يقتبس ـ خطأ ـ هو لبنان . والحقيقة ان بعض هذه الحلول المزعومة يعقد المشكلة اكثر مما يحلها ، بل ويضيف مشكلة جديدة اليها . مثال ذلك اقتراح « الشرق الاوسط الصغير » الذي يقدم كاتحاد فدرالي بين اسرائيل والاردن ولبنان (!) . وواضح ان هذا الاقتراح في جوهره دعوة الى توسيع اسرائيل اكثر منه محاولة لتصفيتها وهو مرفوض عربياً قطعاً .

واذا أردنا نموذجاً لاقتراح متكامل نقف عنده قليلاً ، فليكن اقتراح مكسيم رودنسون . انه يرى الا حل للمشكلة إلا باحدى اثنتين: الحرب أو السلم . ولكنه اذ يستبعد الحل العسكري على الأسس الانسانية ، يرى ان الحل السلمي يتوقف على قبول اسرائيل التخلي عن الفكرة الصهيونية الاستعمارية التوسعية ، وتوقف الهجرة تماماً ، وان تكف اسرائيل عن ان تكون رأس جسر للامبريالية الغربية . عندئذ يمكن لسكانها ان يعيشوا لا كصهيونيين بل كيهود في دولة

يتوازن فيها العرب واليهود « مثلما يعيش المسلمون والمسيحيون في لبنان»، وعندئذ يمكن لها ان تتحول الى دولة « مستشرقة »تندمج في المنطقة العربية.

ولكن ليس من الواضح تماماً ما اذا كان رودنسون يقصد باقتراحه الابقاء على اسرائيل كدولة او تصفيتها سياسياً. ولكن الاغلب انه يبقي عليها . واذا صح قوله ان مليوني يهودي ليسوا خطراً على مائة مليون عربي فانهم خطر على مليوني عربي في الدولة المعنية التي لاندري ان كان المقصود بها دولة فلسطين او دولة اسرائيل.

من العبث هنا ان نبحث عن الرد العربي على كل هذه الاقتراحات الفرضية البحتة . ان كل اقتراح لا يبدأ على الاقل من ازالة اسرائيل كدولة لامحل له من البحث اطلاقاً . والرد الاسرائيلي وحده يكفينا المشقة . فالتوسع ، لا التقلص ، هو حياة اسرائيل وهدفها المعلن . اما الاقتراح بتصفية اسرائيل سياسياً كدولة وليس بشرياً كـكان فليس في اسرائيل احد يمكن ان يقبل بمجرد سماعه .

ثم من ذا الذي يستطيع ان يقنعها بهذا الحل او يرغمها عليه ؟ ان التجربة تقول انه في وجه اي اقتراح من هذا القبيل ستأخذ اسرائيل «قضيتها» في يدها وتتمرد حتى على الدول الكبرى واسرائيل تدرك تماماً – من التجربة الجزائرية مثلاً – ان مجرد زوال صفة الدولة مع عودة العرب يعني مباشرة خروج الصهيونيين في شهور حتى بلا ضغوط ولا تشريعات ولا طرد. **النتيجة المحققة ان الاذابة ، التسوية السلمية ، مستحيلة بصميم كيان اسرائيل نفسها ان لم تكن مستحيلة مرتين بحكم الطرفين . ولا يبدو هناك نظرياً الا طريق الازالة والعمـــل العسكري** . ومن الواضح أن هذا حتى الآن طريق مسدود أومشلول عملياً ، وذلك لعجزنا نحن العرب . فلمـــاذا عجزنا ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال ، نقترح أن نوع الحل الذي يمكن أن يحل

المشكلة في المدى الطويل وفي جذورها الأولية ، هو نفس نوع الحل الذي سيحلها في المدى القصير وفي مضاعفاتها الراهنة .

نعود الى سؤالنا عن الحل العسكري:
لماذا عجزنا حتى الآن عسكرياً ؟
منذ ١٩٤٨ يمكن أن نرى دورة معينة في الصراع العربي – الاسرائيلي تبدو كدوائر متتابعة أو كحلقات تتعاقب مرة كل ١٠ – ١١ سنة ، كل منها تمثل حرباً مع اسرائيل تتوسع ، بعدها ثم حرباً أخرى تزداد فيها توسعاً ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وفي كل مرة يزيد قطر الدائرة . **هذه الدورة الصراعية ، تتوسع باستمرار ولكننا مع الأسف نخسر على الدوام** . فلماذا ؟

مما لاخلاف عليه اننا خسرنا معركة حزيران (يونيو) – في جزء منها – بخدعة الدبلوماسية الأمريكية المعروفة التي أرجحتنا بين الهجوم وانتظار الهجوم. وقد نجحت الخدعة اساسا لخوفنا من التدخل الأمريكي المسلح . ولا بد لنا ان نعترف ان الخوف من التدخل الأمريكي قد تحول لدينا الى عقدة . لقد أصبحنا من خوف أمريكا وخشيتها في هزيمة حقيقية من اسرائيل . ولئن كان هذا ينصرف الى جولة ١٩٦٧ فانه يظل عنصراً كامناً في جولات المستقبل . ومعنى هذا : اما أن تستمر الدورة الصراعية كما كانت غالبا واما أن نكسر هذه الحلقة المفرغة الجهنمية بطريقة أو بأخرى . وهذه الطريقة أو الأخرى لاتخرجان عن **الصدام العسكري النظامي** الذي يقبل بمخاطرة مواجهة التدخل الأمريكي يوما ، أو عن **الحرب الشعبية الفدائية** التي تستبعد بطبيعة الحل خطر التدخل الخارجي .

لقد اثير نقاش طويل عن المقابلة بين هذين الحلين : النظامي والفدائي . والملاحظ ان الحلين يوشكان ان يتناسبا تناسبا عكسيا ؛ فكلما تعثرت جهود الحرب النظامية برزت دعوة الحرب

الشعبيـــة ، وكلما تعرضت نشاطات الفدائيين الى خطر العـدو عادت الى الصدارة دعوة الحرب النظامـيـة كحل فيصل ، والتأرجح بين الطريقين ينعكس الى حد ما على تحديد دائرة العمـــل الميداني ، فالأول يلقي العبء الاكبر على الفلسطينيين والثاني يلقيه على الدول العربية عامة .

أين يكمن الحل الصحيح ؟ انه يكمن في صلابة النظرة والقدرة وحدها . ان للحرب النظامية ثلاث جبهات تطويقية واضحة . ولو توفرت لها القوة الواجبة لكانت هي بلا جـدال مركز الثقل الحاسم في الصراع . وفي هذه الحال يمكن للحرب الشعبية ان تؤلف جبهة رابعة تخرب للعدو من الداخل تخريبا فعالا . انها غزو من الداخل يمكن ، بالتنسيق الوثيق مع الغزو من الخارج ، ان تضع العدو بين فكي كماشة وداخـــل استراتيجية شقي الرحى لاسيما اذا قدر للجيوش العربيــة ان تحطم قوات العدو النظامية وتدخل أرض العدو يوماً .

اذن فالحرب الشعبية ليست بديلاً عن الحرب النظامية ، وانما هي مكمل ثمين لها .

وهكذا يعود الموقف الى الحرب النظامية كأساس للمواجهة مع العدو ، ومعها تعود احتمالات التدخل الأجنبي المسلح ، ويعود شبح امريكا ليلقي بظله على المعركة . ان عداء امريكا لنا أصيل ومفروض علينا ولا يزيله محاولة التفاهم المتعقل ، ولا التلويح بقطع المصالح الاقتصادية ، لأنها كدولة مسرفة الثراء لاتخشى سفه التبذير . واين ارباحها من بترول العرب مما ينفق على حرب فيتنام مثلا ؟ هذا عدا انهـــا تشك في قـدرة العرب الفعليـة على استعمال سلاح البترول كما أوضحت تجربـة حزيران .

لقد ضخمنا من قوة اسرائيل مرتين ؛ مرة من خلال قوتها الذاتيـة ، ومرة

خلال « تلبيسها » بأمريكا . وبنفس المنطق ضخمنا كثيرا من قوة وخطر امريكا . ولكن من الملاحظ ان احداً في العالم لايخشى امريكا كما نفعل نحن . فثمة في فيتنام حرب رهيبة ، وكوريا الشمالية قبلت بالمخاطرة بمواجهة امريكا حين انتهكت حقوقها الدولية . ولا شك ان لتجربة « بيوبلو » ولتجربة فيتنام مغزى كبيراً جداً للنضال العربي .

ثم نعود الى المدى القصير لنتساءل : اذا كان الخطر الأمريكي هو الذي يلقي بنا في التردد والخوف ، أليس ثمة مخرج من هذه الحلقة المفرغة ؟ بعض الظن ان هناك مخرج . المفهوم ان التدخل الأمريكي العسكري لن يجد مايبرر به نفسه الا حين تكون اسرائيل على جانب الدفاع داخل أرضها — أرضنا — اي حين تنتقل المعركة الى داخل حدود الهدنة .

ونحن مقبلون في القريب على احتمالات معركة مسلحة جديدة مع العدو . فلو أمكن باستراتيجية ذكية مقتدرة ان نطيل عمدا وباحكام معركة النفس الطويل على ان نحصرها في النصف الشرقي من سيناء . مستدرجين قوى العدو موجة بعد موجة الى ذلك النطاق لكان تدميراً لاسرائيل بغير تهمة « تدمير اسرائيل » ؛ وذلك باستنزاف كل قواها المحاربة على ارض سيناء . وبعدها ينفتح الطريق اما الى فرض شروط عربية ، واما الى التصرف الميداني من موضع القوة والانتصار .

ولكن مثل هذا يتطلب الحد الأقصى من الاستعداد والقدرة والجرأة .

في التكتيك :

من المسلم به ان اسرائيل تلعب دوراً مزدوجاً : فامام العالم الخارجي تأخذ دور المسالم الضعيف المهدد ، وحين تنفرد بالعرب تلوح بالقوة الوقحة ... ومن الواضح ان هذه السياسة المزدوجة المخاتلة قد وصلت الى قمتها بعد هزيمة

حزيران (يونيو) ، وتزداد الآن يوماً بعد يوم .

وقد كان لهذا رد فعل عنيف على العرب وموقفهم في قضية الدعاية وقصورهم شبه المطلق فيها . والملاحظ ان أسهم خط الدعاية والاعلام والفكر ارتفعت بشدة بعد الهزيمة . واشتدت الدعوة الى الاهتمام بالحوار والمناظرة لكسب الرأي العام العالمي على نغمة علمية هادئة بعيدة عن التهديد . والملاحظ كذلك ان هناك قدرا من شبه التحول في بعض قطاعات الرأي العام العالمي بدأ يتسلل بالتدريج بعد النكسة . ولكن السؤال يظل : أين بالضبط موقع الدعاية من نضالنا التحرري ؟

ليس يشك أحد في ان الدعاية والفكر سلاح اساسي وخطر في معركة المصير . كذلك لايشك أحد في اننا لم نحسن استعمال هذا السلاح ، ان لم نكن حقا قد أسأنا استعماله في القليل الذي استعملناه له .

لنبذل كل طاقتنا في سبيل كسب هذه المعركة ، معركة الاعلام والرأي العام ، ولكن لنذكر اولاً واخيراً انها معركة تكميلية تأتي في المحل الثاني . ان القضية المصيرية الكبرى انما تحتاج الى محارب اولاً ثم الى محام ثانياً .

ان طريق الحق الوحيد هو طريق القوة . ولكن علينا ان نناضل بكل طاقة لنكسب الرأي العام فقط ليكون على استعداد لتقبل الأمر الواقع الجديد يوم نفرضه .

ولكن كيف نوفق بين القوة والدعاية ؟ لتكن اهدافنا ووسائلنا راسخة في اذهاننا . **أولاً** : استراتيجيتنا العظمى هي ذهاب اسرائيل ، **ثانياً** : استراتيجيتنا هي الحل العسكري . ولكن لنحتفظ بذلك لأنفسنا في تخطيطنا ونضالنا ، ثم نحدث العالم حديث السلام واللاعنف . **لتكن الدعاية السلمية هي تكتيكنا** .

نفاق، ازدواجية ؟ كلا ! انه درس

العدو نفسه ووسيلته التقليدية . بل هي لعبة السياسة عامة في الحقيقة .

كشف الحساب الختامي :

وبعد، ماهي آفاق النظرة الجديدة الى القضية الفلسطينية التي ظهرت الدعوة اليها منذ النكسة خاصة ؟ ان دائرة التغيير والتجديد محدودة تكاد تقتصر على التكتيك واساليب العرض والتقديم ، أي الدعاية والاعلام اساساً .

عدا هذا فان باب الاجتهاد مغلق او شبه مغلق ، أما المفتوح على مصراعيه فهو باب الجهاد . ولن تعود فلسطين بالقلم أو بالكلم ، ولكنها بحد السيف وحده ستعود .

اعلان مسابقة

ترغب وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي في وضع الأناشيد التالية :

١ – نشيد مدرسي
٢ – نشيد للشباب
٣ – نشيد للعمال
٤ – نشيد للفلاحين
٥ – نشيد للمرأة
٦ – نشيد قومي
٧ – نشيد للمقاومة الشعبية

شروط النشيد

١ – ان يكتب باللغة الفصحى
٢ – ان يجمع بين بساطة التعبير وعمق المعنى
٣ – ان تستمد موضوعاته من أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية
٤ – ان لايتجاوز النشيد ستة عشر بيتاً وان لا يقل عن اثني عشر بيتاً

شروط المسابقة :

تقدم الأناشيد الى الوزارة (شارع الروضة) في موعد اقصاه اليوم الأخير من شهر تموز ١٩٦٨ بتوقيع مستعار ، في مغلف على زاويته عبارة (مسابقة النشيد) وضمنه مغلف صغير بالاسم الحقيقي ولا يفتح هذا المغلف الا بعد اعلان نتائج المسابقة .

تؤلف الوزارة لجنة لدراسة الأناشيد وتقييمها ، ويصبح قرارها مبرماً بعد مصادقة الوزير عليه . يمنح الفائز الأول عن كل نشيد مكافأة مالية قدرها (١٠٠) ل.س ويمنح الفائز الثاني (٥٠) ل.س .

دمشق في ٢٦/٥/١٩٦٨ .

وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي
سهيل الغزي